عبّاس سليمان

أنا.. آسف جدا

مجموعة قصصية

أنــا..

آسف جدا

نسخة
الكترونية

تصميم غلاف النسخة الإلكترونية: صالح مروكي 2021

عبّـــاس سليمــان

أنا آسف جدّا
مجموعة قصصيّة

العنوان : أنا آسف جدّا.

المؤلّف : عبّاس سليمان.

الجنس الأدبي : قصص.

النّاشر: .....

الإيداع القانوني :

الطّبعة : الأولى

تصميم النسخة الإلكترونية
(الغلاف و المحتوى)
و نشرها الكترونيا: الكاتب و المصمّم
صالح مبروكي 2021

وزير بخمسة دنانير

أنا الآن وزير، وزير لديّ سائق أنيق وسـيّارة سـوداء طويلـة ومكتب فخم وكرسـيّ دوّار وثيـر وجرايـة عاليـة وسـكرتيرات كالحوريّات... لم أشتغل بالسّياسة يومـا ولـم أكـن مناضـلا ولا من طلاّب الكراسـي والسّـلطة. هـو مجـرّد حـظّ أو هـي لعبة سياسة أو لعلّها إحـدى دعـوات الوالـدة الصّـالحات أو حتّى نبوءة "سيدي علي السّـايح"، رجـل طيّـب كـان يـزور حيّنا مرّة أو مرّتيْن في العام، فيجتمع حولـه لـيلا فـي بيتنـا جيراننا ويسـهرون في حضرته إلـى الفجـر ويسـتمعون إليـه وهو يضع يده في كلّ مرّة على رأس أحد الحاضرين وينبّئه بما تخبّئه له سنوات عمره القادمة.

قال له والدي ذات زيارة :

- نبّئني بمستقبل "عبـد الحميـد". اِقـرأ لـي مـا يخبّئـه لـه الزّمن ولَك منّي كبش أقرن، خذه من الزّريبة متى شئت.

وضع الرّجل يده على رأسي. قلّب عينيه بينـي وبـين عينـيْ أبـي. انكمشَـت أسـاريره لحظـة، ثـمّ سـرعان مـا انفرجت وندّت عنه ابتسـامة رسـم بعـدها بسـبّابته علـى التّراب شكل سلّم أشار إلى أعلاه وقال لوالدي:

- انظر . هنا .

قلت لعبة حظّ أو لعبة سياسة أو دعوة صالحة أو نبوءة صدقت. المهمّ أنّي أصبحت وزيرا.

قالت لي زميلتي "مديحة" وكان يجمعنا التّدريس في معهد ثانويّ واحد :

- لا أظنّك تكتفي بشهادة الأستاذيّة وترغب عن إتمام المرحلة الثّالثة.

وبدأت تمدحني وتذكّرني بقدراتي ونبوغي أيّام الدّراسة وتسرد لي قائمة في زملاء قدامى كانوا أقلّ منّا ذكاء ومعرفة ولكنّهم مضوا بعد أستاذيّتهم أشواطا أخرى.

- أصدقكِ القول يا "مديحة" ، لم تعد لي رغبة في أيّة مرحلة دراسة أخرى. لم أعد أطيق الدّروس والفروض وانتظار النّتائج على قلق. يكفيني ما وصلت إليه.

- حتّى لو طلبت منك أن ترافقني... أن تكون معي... أن نكمل معا مشوار التّعمّق في البحث !

كانت "مديحة" فاتنة ومغرية ومغوية.. كذلك كانت أثناء سنوات المعهد والجامعة وكذلك هي الآن أيضا. لم أجد الشّجاعة لأعتذر أو أرفض أو أماطل ... وافقت على مضض... وأصبحتُ أتبعها كالأعمى.... وبدأت رحلة أخرى ... تسجيل ودروس وبحث واختبارات وترقّب... إلى أن نلنا معا شهادة التّعمّق في البحث.

الآن أنا وزير... لديّ سائق أنيق وسيّارة سـوداء أطـول من كلّ السّيّارات التي رأيتها والتي تخيّلتها، ولـديّ مكتـب كالسّرايا، وموظّفات كاللّؤلؤ...

كنت قافلا مـن المعهـد أأرجـح محفظتـي وأدنـدن بكلمـات أغنيـة مـن أغـاني " الشّـيخ العفريـت" عنـدما اسـتوقفني "سـي عبد القادر" :

- صباح الخير أستاذ.

- أهلا بك "سـي عبد القادر".

هو معلّم حديث عهد بالتّقاعد. لا أحد في كلّ المدينة لا يكنّ له كثيرا من الحبّ والودّ... اقترح عليّ كـأس شـاي، فرافقته إلى مقهى السّلام. ما إن جلسنا متقـابليْن حتّـى أخرج لي من جيبه رزمة بطاقات فـي حجـم كـفّ اليـد وبـدأ يمـلأ إحـداها ببيانـاتي : الاسـم واللّقـب والـولادة والمهنـة والمؤهّلات العلميّة ... ثمّ مدّ لي البطاقة وهو يضع سبّابته تحت مبلغ الانخـراط المسـجّل فـي أسـفلها. أدخلـت يـدي إلى جيبي، ومددت له خمسة دنانير، ثمّ بدأ يحـدّثني عـن هذا الحزب الذي يدعو إليه وعن برامجـه ومنخرطيـه... ولـم يتركني إلاّ وأنـا أعـده أن أكـون عضـوا ناشـطا فيـه، مواظبًـا على الاجتماعات، ومساهما فـي التّبرّعـات ومنخرطـا فـي الحملات.

أنا الآن وزير... لا شيء يجبرني على الاستيقاظ باكرا كلّ صباح... أنهض حسب ما يصبح عليه مزاجي أو حسب ما تصبح عليه أحوال الطّقس. أفطر بتأنّ، أفطر إفطار ملك... أحرّك قدمي من باب الدّار إلى باب السّياج، فأجد في انتظاري سيّارتي السّوداء الطّويلة. يفتح لي البابَ السّائقُ. أحيّيه وأركب... لا. عفوا ! أركب وأردّ على تحيّته. أدخل المكتب... مكتبي المعطّر بعطر جديد كلّ صباح... أرتمي على كرسيّ وثير... تأتي سكرتيرتي "فاتن" فتحيّيني برقّة... تضع أمامي قهوتي السّوداء الفائرة... تغادرني لدقائق قليلة ثمّ تعود حاملة دفترا بين طيّاته أوراق لأمضيها... تقترب منّي كثيرا... وتشرع في فتح الدّفتر ووضع الوثائق بين يديّ. تقترب أكثر حتّى يلامس شعرها كتفي ويتدلّى صدرها أمام عينيّ فأشعر أنّ رئتيّ تستحمّان بعطرها... ثمّ تأخذ دفترها وتبتسم وتغادرني، لتترك المكان لرئيس ديوان الوزارة الذي سيعرض عليّ برنامج اليوم... من سأقابل، وإلى أين سأتنقّل...

أنا الآن وزير.

رنّ هاتفي.

خاطبني "سي عبد القادر" كأنّه يوجّه إليّ أمرا عاجلا :

- سننتظرك أنت ومن تدعو لنا معك غدا على الثّالثة ظهرا بمقرّ الحزب... سنعقد اجتماعا مهمّا.

لم أدعُ أحدا لكنّي لبّيت الدّعوة.

قال "سي عبد القادر" بعد أن تحدّث في أمور كثيرة:
- علينا الآن أن نحسم أمرنا في من سنرشّح لانتخابات مجلس الشّعب.

لم يعنِ لي حديثه شيئا... لم أشعر أنّ ما قاله يعنيني من قريب أو من بعيد بل إنّي هممت وقتها بالمغادرة ولكنّه أشار عليّ بالبقاء.

- من يرغب في تقديم ترشّحه ؟

رفع جماعة أصابعهم فسجّل أسماءهم ثمّ تلا القائمة : امرأتان وأربعة رجال وأنا... لا أدري لِمَ فعل "سي عبد القادر" ما فعل ... لا أدري لماذا أضاف اسمي رغم أنّي لم أرفع إصبعي...

وبدأت التّصفيات.

قالوا :
- نجعل للتّصفية مقاييس.

واقتُرِحت مقاييس كثيرة ثمّ كانت الغلبة لمقياس الشّهائد العلميّة ...

وأصبحت مرشّح الحزب في جهتي !!!

أنا الآن وزير... لم أُمض في مجلس الشّعب أكثر من أسبوعين تحوّلت منه بجرّة حظّ أو دعوة مقبولة أو نبوءة صادقة إلى كرسيّ الوزارة... أسند رئيس الحكومة إلى حزبنا مقعديْن وزاريّين فاجتمعنا وتشاورنا وأفرزتني القرعة ثاني اثنيْن سيلتحقان بوزراء الدّولة وأصبحت وزيرا بخمسة دنانير فقط دفعتها لـ"سي عبد القادر" ذات كأس شاي بمقهى السّلام...

أنا الآن وزير...

بسيّارة كالسّفينة.

بسائق كالثّور .

بمكتب كالجنّة.

بسكرتيرات كالبلّور.

أفعل ما أشاء متى أشاء.

أنفق على شهواتي وعلى عائلتي دون حدود.

أجوب بلدان العالم.

وعلى إمضائي تتوقّف مصائر كثير من خلق الله.

منذ متى...؟

وضعت زوجته الأكل على المائدة... أخذت ملعقتها بين يـديها... ملأتهـا ... ثـمّ قبـل أن تصـل بهـا إلـى فمهـا، أعادتها إلى مكانها من الصّحن والتفتت إليه سائلة :

- منذ متى لم نأكل لحما ؟

كان الجواب حاضرا لديه... لم يُمض وقتا طويلا في التّذكّر :

- منذ ستّة أشهر.

وضحك ضحكة صفراء سرعان ما قطعها ليسود بينهما الصّمت.

عندما روى "ونّاس" لزميله "حمدان"... في المكتب ما دار بينه وبين زوجته أثناء وجبة الغداء الأخيرة... ترك الزّميل كرسيّه وجاء يربّت على كتفه... ويجلس أمامه... وهو يقول له :

- ماذا لو دللتك على محلّ تطفئ منه أنت وزوجتك وأطفالك نهمك إلى اللّحم الأحمر ؟
- المحالّ كثيرة... هل تظنّني لا أعرفها ولا أراها ولا أمرّ بها ؟
- دعك منها جميعا. سأدلّك على واحد يمتلكه رجلٌ رؤوف بالعباد يبيع اللّحم الأحمر بأثمان معقولة... صرّح على الملأ أنّه يكره الجشع وأنّه مكتف بهامش ضعيف من الرّبح...

تلمّس "ونّاس" جيوبه ثمّ قفز من مكانه وقال لصاحبه كالآمر وقد حضره وقتها سؤال زوجته "منذ متى لم نأكل لحما ؟" :

- الآن نمضي إليه.

محـلّ واسـع نظيـف يقـف علـى خدمـة زبائنـه شـبّان أنيقون بمناديل بيضاء وبقفّـازات فـي اليـدين... يـراقبهم من وراء مضرب في أوّل المحلّ كهلٌ ذو وجه في حمـرة الرّمان ولحية سوداء طويلة.

- مرحبا بك وبصاحبك ، صاح الجزّار.
- شـكرا... شـكرا... هـذا زميلـي "ونّـاس" ،أصـرّ علـى مرافقتـي إلـيكم بمجـرّد أن حدّثتـه عـن محلّكـم ولحومكم وأثمانكم...

وقف الجزّار... اقتـرب مـن الاثنـين... سـلّم عليهمـا... أشـار إلى واحـد مـن صـبيانه... وأمـره أن يـوفي لهمـا الميزان...

منذ متى لم يشعر "ونّاس" بالفرح؟ هـو لا يـذكر تاريخـا محدّدا... ولكنّه على يقين أنّ تاريخ آخر فرح ضارب فـي مدد طويلة .

ستصـمت زوجتـه عـن السّـؤال عـن اللّحـم... سـتأكله باستمرار... ستأكله إلى أن تملّه... مـا دام هنـاك فـي البلد رجال يكرهون الجشع ويكتفون بهامش مـن الـرّبح بسيط ويخافون الله ويرأفون بخلقه...

لا تـذكر "حليمـة" أنّ ونّـاس عـاد إليهـا مـرّة بمثـل هـذا الكدس من اللّحم... ولا تذكر أنّـه لـم يشـتر مـرّة لحمـا ولم يتذمّر من ثمنه. اليوم وضع في مطبخها لحما كثيرا وأوصاها أن تطبخ منه بلا شـفقة.

وحدّث "ونّاس" عن شـبعه وشـبع زوجتـه وأطفالـه مـن اللّحم زملاء العمـل وأصـحاب المقهـى ومـن لاقـى مـن أقاربه.

وحدّثت زوجته جاراتها وأهلها وقريباتها ومن لاقـت مـن صديقاتها عن الولائم التي أصبح يعـود بهـا زوجهـا إلـى البيت...

وسـأل "ونّاس" يوما صاحب المحلّ إن كـان كثيـرون قـد تعرّفوا إلى محلّـه وأصـبحوا يشـترون منـه بعـد الدّعايـة التي أمّنها له فـنهض مـن مكانـه وأمـر لـه بكبـد وقلـب وكيلوين من لحم الكتـف هديّـة لا يـدفع مقابلهـا ملّيمـا واحدا.

بدأ المحلّ يعرف إقبالا واسـعا وتعالـت فـي كـلّ البيـوت والجلسـات والحانات والمآدب والأعراس والجنـائز أدعيـة بالخير العميم علـى ذلـك الجـزّار الـذي يمقـت الجشـع والذي خالف كـلّ جـزّاري المدينـة وأصـرّ علـى أن يبيـع اللّحم الأحمر بأسعار منخفضة .

ترك "حمدان" مكتبه ذات صباح، واقترب من "ونّاس" يسأله :

- كيف تجد صوتي وأنا أكلّمك يا "ونّاس"؟
- خشنا على غير العادة. لاحظت ذلك وقلت إنّه ألم عابر بالحنجرة...
- انظر إليّ جيّدا... كيف تراني ؟
- كأنّ وجهك استطال... وكأنّ حمرته انطفأت... وكأنّ أذنيك ارتختا وتدلّيتا...
- ذلك ما لاحظته أنا أيضا... وأنت؟ ألم تنتبه إلى شكل وجهك ؟ ألم تنتبه إلى أنّه يسودّ ويطول ؟
- لاحظت ذلك أنا أيضا... ولاحظت أنّ صوت زوجتي أصبح غليظا كالزّئير وكان رقيقا كرائحة الورد... وأنّ فترات نومها زادت وأنّ رقبتها استطالت قليلا.
- زوجتي أصابتها نفس هذه الأعراض. أضحت تتجنّب الكلام لأنّها أصبحت تكره صوتها... وأصبحت تراكم على وجهها المساحيق لأنّه أصبح شبيها بخشبة محترقة...
- تعال نتجوّل بين المكاتب ونبحث في وجوه زملائنا وزميلاتنا عمّا يمكن أن يكون قد مسّها من تشويه...

نهضا... جابا المكاتب وألقيا التّحايا... فأجابتهما أصوات غليظة خشنة... ولاحظا أنّ كثيرا من الوجوه

اســتطالت... وأنّ الآذان قـد تـدلّت ... وانتبهـا إلـى أنّ أحاديث جانبيّة كثيرة تدور هنـا وهنـاك... تركـا المكاتـب والعمل وخرجا يحثّان الخطى نحو أقرب عيادة طبّيّة.

كانــت قاعــة الانتظــار غاصّــة بمرضــى كثيــرين يتبادلون النّظر... ويوشوشون... قرّرا الانتقال إلى عيادة أخرى أقلّ اكتظاظا... انتظرا دورهما. ثمّ دخلا معا...

- أيّها الطّبيب، انظر إلينا. اشرح لنا هذه الخشونة التي أصــبحت فــي أصــواتنا... وهــذه الاســتطالة فــي وجوهنا... وهذا الارتخاء في آذاننا... واشرح لنا أيــضا لماذا تبلّدت أذهاننا... ؟

منذ أيّام وأعراض المرض الجديـد تنتشـر بـين كثيـرين مــن ســكّان المدينــة ومنــذ أيّــام والعيــادات الطبّيــة والصّيدليّات تغصّ بالمرضى ومنذ أيّـام وأطبّـاء المدينـة يتلقّون نفس الشّكاوي ويباشرون نفـس الأعـراض ولا يجدون حلّا غير النّصح بأدوية تلطيف الحلوق والحناجر ومراهم التّمسيد... أربكهم الأمر ودفعهم إلـى تنظـيم نـدوات لتداولـه وردّه إلـى أسـبابه الحقيقيّـة... وعبثـا تتالت النّدوات العلميّة وجيء من خارج الـبلاد بأطبّـاء وعلمـاء وبـاحثين... وظـلّ الأمـر يشـغل بـال المدينـة ويفسد على النّاس حيـاتهم ...إلـى أن بـدّدت الحيـرةَ ذات ليلة نشرةُ الأخبار التـي أعلنـت أنّ إحـدى فـرق

المراقبة الصّحيّة اكتشـفت محـلّا ضـخما يبيـع النّـاس لحوم ... الحمير...
ليلتهـا تـرك الخلـق الـدّيار والتّلفـزة وخرجـوا يجوبـون شـوارع المدينة...
ظلّوا يجوبون الشّوارع وينهقون ...
ملأ النّهيق السّاحات الكبرى والأنهج والأحياء ...
ولم تخفـت أصـوات النّهيـق إلاّ بعـد مـا كلّـت الحنـاجر واقترب طلوع فجر النّهار الجديد...

أنا ... وهنّ الأربعة.

قالت زوجتي وهي تفتح لي الباب :

- أنتظرك بفارغ الصّبر.

كم يخيفني انتظار "سعيدة".

قالت مرّة إنّها تنتظرني منذ ساعات ثم ألقت في وجهي بخبر اختفاء كلّ مصوغها من البيت ...ووجدتها مرّة أخرى تنتظرني وبيدها حقيبتها وعلى رأسها وشاح أسود وهي تقول باكية إنّ انتظارها طال وإنّني أتاخّر عنها دائما حين تكون بحاجة إليّ ثمّ نقلت إليّ خبر دخول والدها إلى المستشفى في حالة غيبوبة ...المهمّ أنّ قلبي اعتاد أن يرتجف ويضطرب كلّما أعلنت زوجتي منزعجة أنّها بصدد انتظاري بفارغ الصّبر.

- خيرا يا "سعيدة" ؟

- تذكُر طبعا أنّي نشرت إعلانَ بحث عن معينة منزليّة ؟

هدأ ارتجاف قلبي قليلا.

- أذكر...

- أنا الآن في حيرة من أمري.

- لِمَ ؟ نعيد نشر الإعلان إن لم يؤت أكله.

- لا... جاءتني اليوم ثلاث معينات دفعة واحدة وأنا عاجزة عن الاختيار بينهنّ.

وأين هنّ ؟

لم تنتبه "سعيدة" إلى رائحة اللّهفة في سؤالي.

- هنا في انتظارك.

مرَرنا إلى غرفة الضّيوف فهبّت بمجرّد دخولي البناتُ الثّلاث واقفات لاستقبالي. حيّيتهنّ... وطلبت منهنّ الجلوس... تجاذبت معهنّ أطراف الكلام... "سارّة" و"لمياء" و"حنان"... ثلاثتهنّ دون الثّلاثين... أنهت "سارّة" تعليمها الثّانوي ولم تحرز على شهادة الباكالوريا أمّا "لمياء" فتابعت دراستها الجامعيّة ثمّ انقطعت عنها لأسباب عائليّة في حين اشتغلت "حنان" موظّفة في شركة تأمين ثم طُردت بسبب تهمة قالت إنّها كيديّة.

لـ"سارّة" الوجه الجميل والشّعر المهياف والقدّ الميّاس.

لـ"لمياء" العينان السّوداوان الواسعتان والخدّان المكتنزان والرّقبة الطّويلة.

ولـ"حنان" الجمال والامتلاء.

ولثلاثتهنّ طراوة اللّسان وحلاوة الابتسامة.

أمسكتني زوجتي من ذراعي وجرّتني إلى غرفة أخرى وسألتني:

- ما رأيك ؟
- الرّأي رأيك... هل خضتنّ في مسألة الأجر وفـي تفاصـيل العمل ؟
- خضنا في كلّ شـيء. يحيّرنـي فقـط مـن أختـار مـنهنّ... ثلاثتهنّ أعجبنني ولثلاثتهنّ ارتحت...
- أنا أيضا.

لم تنتبه "سعيدة" إلى رائحة الشّهوة في كلامي ولـم تسمع التّنهيدة التي أطلقتها بعده .
- اسمعي، لديّ فكرة.
- هات... أعرف أنّك ستخلّصني من هذه الحيرة.
- نُشغّلهنّ بالتّناوب ... نسـتبقي كـلّ واحـدة مـنهنّ شـهرا واحـدا.... ثـمّ نقـرّر. سـيكون قرارنـا وقتهـا عـن تجربـة ولـن نظلمهنّ ولن نظلم أنفسنا.

لم تفه "سعيدة" بحرف ولكنّها ارتمت علـيّ وقبّلتنـي بعنف... ثمّ هرولـت نحـو البنـات الـثّلاث... وسـمعتها تقـول لهنّ :
- اكتبن لي أرقام هواتفكنّ ...سأتّصـل قريبـا جـدّا بإحـداكنّ لتكون معينتي وسأتّصـل بصـديقتيْن لـي لانتـداب الاثنتـين الباقيتيْن .

ارتمت البنات الثّلاث على "سعيدة" يقبّلنها وغادرن البيت ضاحكات.

قالت لي "سعيدة" :

- لا أدري والله من أين تأتيك هذه الأفكار ولا أدري لماذا لا أهتدي مثلك إلى بعض منها.

انتهزت الفرصة لكي أسأل :

- بمن ستبدئين ؟

- لا أدري. ولكنّي سأتّصل بإحداهنّ مساء لتشرع في العمل بداية من صباح الغد. عندما يبلغ الشّهر أجله، سوف أشكرها وأتعلّل لها بأنّنا سنكون على سفر لمدّة شهريْن كامليْن، وأعدها أنّني سأعاود دعوتها من جديد.

ليلتها لم أنم من اللّيل إلاّ قليلا. سمعت آخر المساء زوجتي تخاطب إحدى الفتيات وتتّفق معها ولكنّي أحجمت عمدا عن سؤالها ثانية أيّهنّ ستكون الأولى. بتّ أتقلّب... أتخيّل... أحلم... ثمّ أخذني النّوم مع الفجر ولم أستيقظ إلاّ على صوت سعيدة تنبّهني إلى ميعاد العمل.

- دعيني أرتاح اليوم... البارحة قضيت ليلة بيضاء.

- يبدو وجهك ذابلا... كأنّ دمك هرب منه. سأحمل إليك الفطور وسأغادر أنا إلى العمل.

سمعت الباب يفتح ويغلق... وسمعت بعده عصفور النّاقوس يزقزق. عاودت النّظر إلى وجهي أتأكّد إن كان دمه الذي قالت زوجتي إنّه هرب منه قد عاد إليه ثمّ هرولت نحو الباب فألفيت"حنان" تطلّ وتبتسم . لا أدري لماذا بمجرّد أن رأيتها تبادر إلى ذهني أنّها قضّت ليلة البارحة تتجمّل وتتهيّأ وتضع زينتها.

دخلت. علّقت حقيبتها اليدويّة ونزعت معطفها وارتدت منديلا أزرق في لون سماء شهر أوسّو وباشرت أشغالها... كانت ترتّب البيت وأنا أتبعها من ركن إلى ركن. وذهبت تهتمّ بشؤون المطبخ فوقفت إلى جانبها ودخلت تعيد ترتيب غرفة النّوم فرافقتها وسمحت لنفسي أن أساعدها.

ولم يحن أوان عودة "سعيدة" من عملها إلاّ وأنا و"حنان" قد اكتشفنا ميولاتنا وطباعنا وما نحبّ وما لا نحبّ... لم تنقض تلك السّاعات حتّى كان حبل الحديث بيني وبينها قد امتدّ طويلا وحتّى كانت انسابت نكت كثيرة بيننا وحتّى لم تعد هناك حواجز قائمة... تبادلنا رقميْنا... واقتربنا من بعضنا بعضا... وقطعنا في ثلاث ساعات تقريبا أشواطا تُقطع في شهور طويلة...

قالت "سعيدة" ونحن نجلس إلى الغداء إنّ ملازمتي الفراش اليوم قد أعادت إليّ صفاء عينيّ ونور وجهي.

- لا بدّ أنّك استعدت النّوم الذي هرب منك البارحة.

تمنّيت لو قالت لي مثلا :
- مازال دمك هاربا من وجهك... عليك أن ترتاح أكثر.
- نعم. شبعت نوما هذا الصّباح...
قلت ذلك وذهبت أندسّ في فراشي ... وأنهت "سعيدة" غداءها وذهبت تراقب عمل مساعدتها الجديدة وتفصّل لها برنامج اليوم الموالي قبل أن تسمح لها بالانصراف...

فتحت النّافذة وأطللت منها على صديقتي الجديدة وهي تتّجه نحو باب الخروج... حانت منها التفاتة فرأتني أتعقّبها بعينيّ. رفعت يدها وحيّتني فرفعت ذراعي ورددت على تحيّتها... ثمّ عاودت الاندساس تحت الغطاء...

كرهت ساعات العمل وأصبحت أتلكّأ في كلّ الشّؤون التي تستوجب بقائي بعيدا عن "حنان"... أصبحت أحبّ البيت كثيرا... وشكرا لزوجتي التي لم تنتبه لعودتي أحيانا باكرا جدّا، ولم تهتمّ لخروجي في أحيان أخرى متأخّرا جدّا، ولم تتساءل لماذا أصبحت سعيدا كعريس... مرحا كطفل

مدلّل... وشكرا لـ"حنان" التي لم تبخل عليّ بشيء على امتداد الأيّام التي قضيناها معا...

أصابني يوم مغادرتها اكتئاب لم أذق لطعمه مثيلا وركبني ندم على ذلك الاقتراح الذي عرضته منذ شهر مضى على "سعيدة" وكافأتني عنه وقتها بقبلة كاللّكمة... حاولت أن أفاتحها في أمر استبقاء حنان *و"اللّي تعرفو خير م اللّي ما تعرفوش"*، ولكنّي فقدت شجاعتي قبل أن أنطق بالكلمة الأولى فركنت إلى الصّمت ...

تركتنا "حنان" باكية.

قالت لها زوجتي :
- سنترك البيت شهرين نقضيهما في ريف زوجي البعيد ولن أتأخّر حال عودتنا في دعوتك من جديد...
أسرعتُ أتوارى في غرفتي. فتحت النّافذة وأنا لا أشكّ في أنّها ستخصّني بالتفاتة... رفعت يدها فرفعت يدي... وابتلعها الطّريق الطّويل...

ليلتها لم أنم... بتّ أتقلّب... أتذكّر وأحلم وأتألّم... تذكّرت قليلا وتألّمت قليلا وحلمت كثيرا... سمعت زوجتي تخاطب إحدى المعينتيْن مساء وتدعوها أن تلتحق للعمل

لدينا بداية من صباح الغد... لم يأخذني النّعاس إلاّ مع ساعات الفجر الأولى ولم أستيقظ إلاّ على صوت "سعيدة" وهي تنبّهني إلى أوان العمل...

- دعيني أرتاح اليوم...لا أدري لماذا البارحة بتّ يقظا.

- وجهك أصفر وعيناك مرتخيتان وشفتاك يابستان ... عليك أن تركن اليوم كلّه إلى الرّاحة. أفطر وعد إلى النّوم.

قالت لي ذلك وغادرت البيت وهي توصيني خيرا بـ"لمياء".

وجاءت "لمياء" فنسيت بمجرّد رؤيتها أيّامي الجميلة مع المعينة الأولى... وبدأت رحلة أخرى... أتمارض وأتأخّر عن العمل وأفرّ منه باكرا وأشتري الهدايا لصاحبتي الثّانية التي رفعت في وجهي كلّ اللاّءات ثمّ هدّتْها هداياي وأرغمها على طاعتي إصراري ووعودي... لم أنل من الأيّام التي قضتها بيننا غير نصفها تقريبا . ولكنّي كنت فرحا مرحا. كنت كوليّ عهد انتقلت إليه الملوكيّة. وشكرا لـ"سعيدة" التي لم تنتبه لتصابيّ ومراهقتي الجديدة وانصرافي عنها. وشكرا لـ"لمياء" التي لم تصمد طويلا أمام إغراءاتي ووعودي والتي يبدو أنّها ندمت كثيرا على كلّ يوم كان فيه ضميرها صاحيا.

عاودني الاكتئاب مضاعفا يوم انتهت أيّامها. ذكّرتني مغادرتها بلحظة ذهاب "حنان" فحزنت مرّتين.

وأعادت زوجتي على معينتها الثّانية ما وعـدت بـه الأولـى وأجزلت لها الأجر وودّعتها باكية.
سمعتها مساء تتّصـل بـ"سارّة" التـي أكّـدت أنّهـا سـتكون بيننا صباحا.
حاولت أن أنام فلم أنم وحاولت أن أتـرك فراشــي قبـل أوان العمل فلم أستطع، ولم تشجّعني على تركه زوجتي...
- يجب أن تزور طبيبا. ما حكاية هـذا الأرق الـذي يأتيـك من ليـل لآخـر ؟ ومـا حكايـة هـذا الاصـفرار فـي وجهـك وهذا الذّبول بعينيك ؟ وما حكايتك أنت ؟
- اليوم ألازم البيت وغدا أزور الطّبيب.
- لا تـنس أن تطلـب منـه أسـبوع راحـة علـى الأقـلّ... سيساعدك ذلك كثيرا على استعادة نسقك الأوّل...

ولم تترك لـي "سـارّة" فرصـة لألمّـح أو أصـرّح برغبتـي فيهـا... هـي مـن طينـة أخـرى... لـم تكـن مـن طينـة "حنان" التي لا تأتيك من تلقاء نفسها ولا تصـدّك عنهـا متى اقتربت... ولم تكن من طينة "لمياء" التي تمنعـك ثمّ تنهدّ بهداياك... "سارّة" كانت مختلفة ...تبـادر إليـك دون أن تطلب منها ذلك ودون أن تنتظر عطاياك...

قالـت زوجتـي بعـد مضـيّ عشـرين يومـا مـن مجـيء المعينة الثّالثة :

- عليك أن تساعدني في اختيار واحدة من البنات الثّلاثة... أيهنّ تراها الأفضل؟

لم أكن أمتلك جوابا عن سؤالها... كان عسيرا أن أختار بين ثلاث فاتنات كلّ واحدة منهنّ أمتعتني أكثر من الأخرى... ولم يعد مجديا أن أختار لأنّه لم تعد لديّ قدرة على أيّ من الثّلاثة...

منذ أيام... زرت طبيبا صديقا شكوت إليه ضعف بدني وخُفوت بصري وارتعاش أطرافي واستمرار أرقي وإنهاكي وخوفي من أن أستمرّ على عجزي... فحصني طبيبي بدقّة بالغة... نظر إليّ بإمعان وقال لي :

- عليك أن تهجر عملك وفراشك... ستزيد هذه الأدوية من إقبالك على الأكل وستحسّن نومك وسترمّم لك بدنك وستجدّد لك خلاياك... ولكن، اِحذر ! علاجُك في أن تهجر كلّ ما يجهدك حتّى وإن كان في الجهد متعة.

صباحا ،حملت أدويتي وبعض أمتعتي وقلت لـ"سعيدة" :

- أنا ذاهب لقضاء أيّام بين أهلي. اشتقت إليهم، وبي حنين إلى كسرة أمّي وإلى بيض دجاجها وإلى عسل نحل أبي...

سألتني البارحة عن معيناتك الثّلاثة... اختاري منهنّ من ترينها الأقرب إليك... اختاري من تشائين...

سمعتها وأنا أغلق باب السّيارة تسألني :

- متى تعود ؟

كدت أجيبها :

"لن أعود".

ولكنّي، إشفاقا عليها قلت :

- قريبا يا سعيدة... لا تقلقي بشأني كثيرا.

حالات
(1)

قالت لها نسوة الحيّ وألححن في القول :

- أنت لن تخسري شيئا. هو الآن في التّسعين... صحيح أنّ الأعمار بيد الله وحده... ولكنّه لن يعيش طويلا... قريبا جدّا سترِثين داره الكبيرة وأملاكه الواسعة وجرايته المرتفعة. أمامك فرصة... فلا تضيّعيها...

- أقسم، لو كنت مكانك لما تردّدت لحظة واحدة... ها أنت في الخمسين وحيدة بعد موت أمّك وأبيك... لا قريب

يســندك... ولا مـورد رزق تعـوّلين عليـه... اِقبلـي بعمّـك "الطّاهر" ولن تندمي أبدا.

ولـم يتـرك شـيخ التّسـعين عامـا رجـلا ولا امـرأة فـي الحيّ والأحياء المجاورة إلاّ أرسـله خاطبـا متوسّـلا. أغراهـا بثروته الواسعة ووعدها بالرّاحة والدّعة والدّلال فـي حياتـه وبإرث يكفل لهـا بعـد موتـه حيـاة رغيـدة... هـي تعـرف أنّـه مسـنّ وتعـرف أنّ كثيـرا مـن العلـل تسـكن بدنـه ولكـنّ مـا يدفعها إلى التّفكير في القبول به زوجا فقرُها ويتمُها وأنّـه رجل لا وريث له. لم تكن نفسها تهفو إليه. وكانت، رغم أن لا أحد طرق بابها، تحيـا علـى أمـل أن يطلبهـا يومـا للـزّواج خمسـينيّ مثلها أو ستّيني على الحدّ الأقصى. ظـلّ الأمـر يشغلها أيّاما. ثمّ أقنعت نفسها أنّ التّجربـة قـد تكـون خيـرا مـن الانتظـار الأعمـى. وقبلـت العـمّ "الطّـاهر" زوجـا علـى مضض... وانخرطت في حياة أخرى...

مرّت أيّام أولى... ثمّ بدأت متاعب بالنّهـار وأخـرى باللّيـل... أصبح العمّ "الطّاهر" لا يغادر الفـراش إلّا لماما... وأصـبحت لياليه تقلّبا وسعالا... وشـهيقا وزفيـرا... وأصـواتا مختلفـة... لم يختلف الأطبّـاء حـول صـعوبة حالتـه ولـم تنفـع أدويـتهم في تخفيف آلامه ولم يعد العارفون من أهل الحـيّ يرجـون له غير حسـن الخاتمة... ولها غير جميل الصّبر.

تحوّل ليل "حميـدة" إلـى نهـار طويـل... وأصـبح نومهـا إغفاءات سـريعة قصيرة تسـترقها من النّهار اسـتراقا... غارت عيناها ونشـفت وجنتاها وضمر بدنها.

كانت تسدّ الباب فأصبحت كخيط إبرة.

وكان وجهها كالشّمس... فأصبح كليمونة ذابلة...

وكانت إذا مشت تُزلزل الأرض تحت قـدميها... فأصـبحت إذا وقفت يُخشـى عليها أن تترنّح وتهوي.

وأصـبح الطّبيـب كلّمـا جـاء البيـت يفحـص الاثنـين معـا... وتكدّسـت علب الدّواء...

وأصبحت بعض نسـاء الحـيّ يـؤمّنّ شـؤون العـمّ "الطّـاهر" وزوجته...

ثـمّ انتشــر ذات صـباح وســرى فـي الحـيّ وبـين أهـالي المدينة خبر انتقال "حميدة" إلى مثواها الأخير...

وتـدافع النّـاس لتقـديم العـزاء لزوجهـا ذي التّسـعين عامـا الذي أصبح أرمل من جديد...

(2)

الحمد لله.

صحيح أنّني لم أتمنّ أن أموت اليوم.

صحيح أيضا أنّني ما تمنّيت أن أقضي نحبي في حادث مرور وأنا في طريق عودتي اليوميّة من جني الزّيتون.

انقلبت السّيارة التي كانت تقلّنا نساء أخريات وأنا ومات من مات ونُقل إلى المستشفيات القريبة من ظُنّ أنّه ناج.
لست من الذين يخافون الموت ولكنّي لم أكن أتمنّى أن تكون نهايتي اليوم.
أنهينا واجب الجني اليوميّ وتفرّقنا تحت الأشجار ننتظر أن يحلّ بيننا مشغّلنا .
تأخّر كثيرا ... ولكنّه جاء.
نقدنا أجرة شهر كامل.
مائتيْ دينار للّواتي لم يتجاوزن الأربعين.
ومائة وخمسين دينار لمن كنّ بين الأربعين والخمسين.
ومائة وثلاثين دينارا لي أنا البالغة اثنتين وتسعين عاما.

صررتها في طرف غطاء رأسي وركبت السّيارة منتشية.

هي لا تكفي لشيء ... ولكنّها خير من لا شيء.
تمنّيت اليوم لو عدت إلى بيتي بالمائة والثّلاثين دينارا...
كنت سأشتري برتقالا لأحفادي.
وكنت سأشتري فحما لنتدفّأ.
وكنت سأسدّد بعض الدّيون.
...
رغم ذلك كلّه لست متأسّفة كثيرا.

للبدايات نهاياتها والموت جنّة الفقراء.
منذ أيّام جاءت التّلفـزة إلـى الضّـيعة وتحـدّثت مـع صـاحبها وحاورتنا واحدة واحدة.
كم تعجّبت تلك الفتاة الشّـقراء لأمري...
لم تصدّق أنّني أقطع كلّ يوم ثلاثين كيلومترا في صـندوق سـيّارة عاريـة وأقضـي السّـاعات الطّـوال أجنـي الزّيتـون وأجمعه وأعبّئه في الصّناديق والأكياس.
لم تصدّق أنّني أفعل كلّ هذا من أجل مائـة وثلاثـين دينـارا أقبضها عندما يبلغ الشّـهر أجله ويبلغ صبري فورته.
قلتُ لي بحنكة العجائز المجرّبات :
- سيبلغ تعجّبها أولي الأمر ولن يتـردّدوا فـي البحـث عنّـي والهرولة نحوي والاعتذار لي وفي منحي جراية قـارّة وفـي تشغيل واحد من أبنائي العاطلين.
ولكنّ ما فكّرت فيه وما تعجّبت منه تلك الشّـقراء ومـا بثّتـه التّلفزة ذهب أدراج الرّيح.
- فكّوا تلك العقدة المربوطة في طـرف هـذا الوشـاح الـذي مازال يغطّي رأسـي.
خذوا ما فيها.
إيّاكم أن تصرفوا عليّ منه ملّيما واحدا...
اللّي مات، مات...
والحيّ أولى من الميّت...

(3)

قال لها خطيبها وهو يمسك يدها بين يديه :

- غـدا ، سـتكونين ضـيفتي. سـنذهب سـويّا فـي رحلـة بحريّة... حجزت تذكرتين في سفينة الرّحلات القصيرة. استعدّي ، سنتناول غداءنا في قلب البحر ولن نعود إلاّ آخر النّهار.

- غدا ؟ هل يمكن أن تؤجّل ذلك يوما آخر ؟
- يمكن طبعا.
- غـدا سـأنطلق مـع خيـوط الفجـر الأولـى فـي زيـارة إلـى سلسلة من القرى والأرياف .سألتقي الأطفال هناك لأقـرأ لهم قصصًا وأوزّع عليهم كتبا وجرائد ومجلّات .

هي هكذا...
لا شـيء أحبّ إليها من أن تكون وسط مجموعـات الأطفـال ترغّبهم في الكتب وتقرأ عليهم مقاطع منها وتسـتمع إلـى تعليقاتهم حولها.
منذ سنوات وهي تخصّص يوما من كـلّ شـهر تتحـوّل فيـه بسيّارتها التي يشبه شكلها شكل السّلحفاة إلـى أطفـال الأرياف والقرى النّائية .
تحطّ الرّحال في مدرسة ، أو دار شـباب أو نـادي أطفـال أو حتّى تحت شجرة كبيرة... يتحلّق حولهـا روّادهـا الصّغار... تصـفّف أمـامهم كـلّ مـا تجلـب معهـا مـن كتـب ومجـلاّت وأشرطة مصوّرة وتدع لهم حرّية التّصفّح والتّقليـب والقـراءة والاختيار.
تقرأ لهم قصّة... تعرض لهم شريطا... تلتقط معهم صورا...
تستمع إلى محاولاتهم في الكتابة...
تقضي معهم وقتا يمرّ كالبرق.

ثمّ تتركهم على أمل أن تعود إليهم في موعد لاحق لا تذهب قبل أن تحدّده معهم.
قبّل الخطيب خطيبته وخرج مسرعا وذهبت الخطيبة تنام باكرا... فغدا يوم حافل بالنّشاط والتّعب.
أمامها اليوم أربعة أرياف نائية ...
كانت كلّما اقتربت من أحدها تلتقط عيناها مجموعة من الأطفال متجمّعين يتطلّعون إلى سلحفاتها. يراها أصدقاؤها فيتدافعون نحوها ...تنزل وتسلّم عليهم واحدا واحدا ...تتعرّف إلى الجدد وتسأل عن المتغيّبين من القدامى ...توزّع عليهم الحلوى ثمّ تضع أمامهم ما جلبت من كتب وصور ومجلّات وجرائد ... تتصفّح معهم الكتب كأنّما تراها لأوّل مرّة وتقرأ لهم صفحات منها كأنّها لم تقرأها من قبل..
اليوم وبعد أن أمضت مع آخر مجموعة وقتا شعرت فيه أنّها تلذّذت عذوبة الطّفولة ومتعة الكتب وحلاوة الصّور قبّلت أطفالها واحدا واحدا ثمّ امتطت سيّارتها وظلّت وهي تبتعد عنهم تلوّح إليهم بذراعها مستمتعة بأصواتهم تلاحق أذنيها: إلى اللّقاء... إلى اللقاااااااااااااء .
كان الوقت في حدود الرّابعة عصرا عندما أنهت جولاتها وأخذت طريق عودتها وهي تستعيد ذكريات يومها وتذكّر

نفسها برحلة البحر غدا...غدا ينسيها البحر تعب ما لاقته اليوم في الصّحراء .

كانت تقود سيّارتها السّلحفاة وصور أطفالها تتراءى أمام عينيها...صورهم وهم يبتسمون، يضحكون، يقرؤون، يتصفّحون الكتب، يتلاقفون المجلاّت المصوّرة، ينصتون إلى قراءاتها ...

كانت تقود سيّارتها بعسر لأنّ أشعّة شمس العشيّة المنعكسة على البّلّور كانت تفسد عليها الرؤية.

فكّرت في أن تتوقّف وتنتظر إلى أن تخفّ أو تختفي الأشعّة الحارقة ولكنّها قدّرت أنّ الانتظار سيدوم طويلا فعزمت على مواصلة السّير ومضاعفة الحذر.

شاهدت شاحنة تعترضها. بدا لها أنّ الشّاحنة ستلتهم سيّارتها فزادت لاجتنابها من ملازمة اليمين... ويبدو أنّها مالت كثيرا، أكثر ممّا ينبغي... شعرت بسيّارتها تخفّ وتصبح كالعرجاء، ثمّ تفقد توازنها. حاولت أن تعود بها إلى الطّريق فلم تستجب لمحاولتها السّيّارة... ومالت بكلّيتها إلى اليمين ثمّ انقلبت .. وبدأت تتدحرج...

بدأت في التوقّف عل جانبيْ الطّريق سيّارات قادمة من الاتّجاهين وبدأ يلتفّ حول المرحومة خلق كثير واقتضى

الأمـر وقتـا وجهـدا لتُرفـع عـن الجثّـة مئـات الكتـب التـي تكدّسـت فوقها وغطّتها تماما.

ثلاث محطّات

(1)

أنا ومشغّلتي

« أستاذ يقدّم دروسا في اللّغة الفرنسيّة لتلاميذ المرحلة الثّانوية. يُرجى الاتّصال على الرّقم التّالي .....»

نشرت الإعلان وأخذت أنتظر أن تتهاطل عليّ الدّعوات وظللت أسبوعا كاملا أضع الهاتف تحت وسادتي ليلا وفوق الطّاولة وأنا في المقهى وعلى المائدة وأنا أبتلع أكلي.

انقضى أسبوع وإعلان الجريدة لا يؤتي أكله ثمّ خاطبتني في اليوم الثّامن امرأة. قالت إنّها أمّ لثلاثة أولاد وإنّها ترغب في أن "تجرّبني" شهرا. واتّفقتْ معي على ثمن للتّجربة فاق توقّعاتي.

وبدأت أتردّد على بيت مشغّلتي.

وبدأت في حصص ترويض أولادها.

أدرّسهم وألاعبهم وأخاصمهم وأزجرهم وأرضيهم ....

وتراودني قبل كلّ حصّة فكرة التّخلّي عن التّجربة والهروب من هؤلاء الشّياطين الثّلاثة.

أفكّر... وأفكّر... وأفكّر...

ثمّ أقنع نفسي بالصّبر وأحوّل تفكيري من شغب الأطفال ومرارة خبزتي معهم إلى المكافأة التي سأنالها آخر الشّهر...

بعد أيّام قالت مشغّلتي إنّها مرتاحة تماما لأدائي ولعلاقتي بأبنائها وإنّني سأظلّ الأستاذ الدّائم لثلاثتهم.

يوم بلغ الشّهر أجله قصدت عملي مستبشرا بالأجرة المنتظرة فخورا لأنّني صمدت ثلاثين يوما كانت من أمرّ أيّام حياتي ولأنّني لم أتراجع ولم أفرّ ولم أفرّط في حقّي.

ضغطت على زرّ النّاقوس وانتظرت الدّقائق التي اعتدت انتظارها فلم يأت لفتح الباب أحد.

طرقت الباب بلطف ولمّا لم يُفتح لي أخذت أطرقه بعنف ثمّ ...بعنف أكبر ... لم أتلقّ أيّ جواب.

عاودت الطّرق بحنق فـ...انفتح الباب...

انفتح باب جار مشغّلتي وأطلّ منه كهل يبدو أنّه كان يغطّ في نوم عميق :

- لا بأس ؟
- أنا مدرّس... منذ شهر وأنا أقدّم هنا- وأشرت إلى منزل مشغّلتي- دروسا خصوصيّة. اليوم وعلى غير العادة لم يفتح لي الباب أحد.
- يبدو أنّها غادرت البيت البارحة ويقال إنّها انتقلت للسّكن بحيّ آخر.

قال ذلك واختفى وراء بابه الحديديّ الأسود.

أخرجت جوّالي وكوّنـت رقـم أمّ الأولاد الثّلاثـة، كـان هاتفها مغلقا.

ظلّ لأيّام مغلقا.

وفهمت أنّه سيظلّ مغلقا أبدا.

(2)

أنا ...وجرائدي

اليوم، وبعد أن قضيت ليالي أقلّب الأمر على كلّ جوانبه اقتنعت أن لاشيء بحوزتي سأخسره في النّهاية وقرّرت التّخلّي نهائيّا عن تردّدي وأن أتوكّل على الله.

اتّفقت مع مزوّد الجرائد بالمدينة على أن أتسلّم منه كلّ فجر رزمة من كلّ صحيفة وأن أعود إليه كلّ مساء بما تبقّى منها وما قبضته مقابل المبيعات وأن استبقي مائة مليم عن كلّ نسخة بيعت.

تطلّب الأمر أن أقتني طاولة طويلة وكرسيّا ودرّاجة عاديّة أنقل بها الجرائد من مقرّ مكتبة المزوّد إلى حيث سأنتصب لعرضها. اخترت ساحة وسط المدينة. مكان تجاوره دار الثّقافة ودار الشّباب وبنك كبير ومقهى ويمرّ منه المغادرون للمدينة والدّاخلون إليها.

رتّبت جرائدي وبدأت أنتظر...

وضعت على الطّاولة عصا طويلة حتّى لا تحرّكها الرّيح ولا تمتدّ إليها أيدي المتطفّلين ...وبدأ يلتفّ حول طاولتي جماعة من المارّين أمامها والواقفين حذوها والدّاخلين إلى مكاتبهم والخارجين منها وروّاد المقهى... انتظرت أن يطلب منّي أحد جريدة، أن يدخل أحدهم يده في جيبه... ولكنّ الجميع كانوا يكتفون بقراءة العناوين... يقفون، ينظرون في الصّفحات ، يغيّرون المواقع حتّى يمرّوا بكلّ الصّحف المعروضة على الطّاولة الطّويلة ،يتبادلون

التّعاليق، يحلّلون، يناقشون... وتضطرّني خصوماتهم حول ما قرؤوا أحيانا إلى التّدخّل لفضّ النّزاعات وإعادة الهدوء إلى ساحة طاولتي. جاء أحدهم... اقتنى جريدة وجلس على كرسيّ إسمنتيّ مجاور... شرع في القراءة... لحق به واحد آخر... جلس إلى جواره... اقتسما الجريدة...تبادلا بعد ذلك الأوراق التي اقتسماها... جاء إلى جوارهما رجل ثالث... تبادل معهما التّمتمات... أدخل يده في جيبه، رأيته يخرجها قابضة على مائتي ملّيم ويدسّها في يد الذي اقتنى الجريدة أوّل الأمر ويجلس ويشرع في القراءة !!! طلب منّي حريف جديد جريدة مددتها إليه فرحا ومددت يدي لأقبض ثمنها. بدأ يبحث في كلّ جيوبه ثمّ همّ بإعادتها إلى مكانها فوق زميلاتها تحت عصا الحراسة معتذرا بأنّ ما لديه لا يكفي. قلت له:

- لا بأس ،هات ما عندك وخذها، خذها بما لديك.

عندما انتصف النّهار كنت قد أخذت قراري ولكنّي قلت "أتركه بيني وبيني مؤجّلا إلى أن تمرّ على التّجربة أيّام أخرى". مرّ يومان ونُسخ الجرائد التي أبيعها من اللّيل إلى اللّيل لا يتعدّى العشرة. مرّت ثلاثة أيّام... أربعة أيّام... في اليوم الخامس أحصيت عدد الذين قرؤوا العناوين فألفيتهم فوق المائة بكثير ثمّ أحصيت عدد الجرائد التي

اقتناها الحرفاء فألفيتها إحدى عشر جريدة. في اليوم السّادس جئت ساحة وسط المدينة متأخّرا. ذلك اليوم لم أكن قد جئت لأبيع الصّحف. تلك مهنة لن أعود إليها . جئت أعرض للبيع بأيّ ثمن الطّاولة الطّويلة والدّرّاجة المستعملة والكرسيّ الحديديّ.

(3)
في ذمّة الله

سرى في المقهى التي أرابط فيها غالب ساعات النّهار ونصف ساعات اللّيل خبر مفاده أنّ لصاحبها السّيد

"مفتاح بن فرج" صديق حميم من طاقم السّـلطة الحاكمـة يوظّف بمبالغ ماليّة مقبولة العاطلين مـن أصـحاب الشّـهائد العليا.

ثـمّ سـرت أخبـار أخـرى ذكـرت بالتّفصـيل اسـتلام صاحب المقهـى عـدّة ملفّـات مصـحوبة بـالأموال المطلوبـة ليضعها على طاولة صاحبه.

لم يكن لديّ المبلغ المطلوب.

ولم يكن لي في أهلي وأصـحابي مـن أعـوّل عليـه ليساعدني.

فكّـرت فـي نصـيبي مـن الـذّهب الـذي ورثتـه عـن المرحومة أمّي.

كنت أخبّئه في تلافيف روحي.

منعت نفسـي مرارا من أن أتصرّف فيه أو أقترب منه وقلـت أدعـه لعظـائم الأمـور... .ثـمّ لمّـا راج أمـر الوظـائف بمقابل أقنعت نفسـي أنّني مطالب الآن أكثر مـن أيّ وقـت مضى أن أكون شجاعا، أن أغامر...

اسـتعدت مـرارا سـيرة العـمّ "مفتـاح" فلـم تقـف ذاكرتي على ما ينبّهني إلـى أنّ للرّجـل باعـا فـي التّحيّـل وإخـلاف الوعـود والطّمـع... والرّجـل إلـى ذلـك شـيخ علـى مرض لن يكون في نيّته أن يصرف الأموال التـي سـيجمعها في النّزوات.

ثمّ ففكّرت في سيرة هؤلاء الذين غامروا قبلي وسلّموه وثائقهم وأموالهم واستثاقوه فوجدتهم جميعا من عقلاء القوم...

كلّفت من يتّصل بالرّجل، وأعددت وثائقي، وبعت ذهب المرحومة أمّي، وقيل لي يومها "انتظر شهرين وستنال وظيفتك ."

فرحت بالوظيفة القادمة ووعدت الوالدة عندما زارتني في المنام لائمة أن لا أترك صندوقها فارغا وأن أعيد إليه خلال عام ذهبا كالذي كان فيه.

أصبحت أترقّب كلّ صباح مجيء العمّ "مفتاح" لأتأمّل وجهه بحثا عمّا يطمئنني على ذهب أمّي ووظيفتي ولكنّ ما أقلقني أنّ زياراته إلى مقهاه بدأت تتباعد. أدخل المقهى وأتطلّع إلى كرسيّه فألفيه فارغا وكان يوضع له على مقربة من المضرب يراقب منه حركة الدّخول والخروج وطلبات الحرفاء ونشاط النّادل.

سألت عنه، فقيل لي إنّ المرض يمنعه من الحضور ...

ثمّ بدأت تروج أخبار عن تدهور صحّته ولم نعد نراه يرتاد مقهاه...

ثمّ ذهبت ذات صباح إلى المقهى فألفيت أبوابه موصدة ولا أحد من الحرفاء يجلس تحت شجرة الكاليبتوس الكبيرة أو يحوم حول المكان.

لم أنتظر طويلا ... جاء من يخبرني أنّني ... في ذمّة الله.

نزل الأنس.

السّاعة الثّانية بعد الزّوال .

نزلت من سيّارة الأجرة متعبا ...استطعت بعسر أن أحـرّك قـدميّ وبقيـت أنتظـر أن يعـاود الـدّم الجريـان فـي عروقهما.

التقطت حقيبتي وبدأت أجرّهـا فـي اتّجـاه سـيّارات التّاكسـي.

قلت للسّائق وأنا أجذب الباب :

- خذني إلى نزل متواضع جدّا.

نظر إلى بدلتي وإلى ربطة عنقي وبدا كأنّه يريد أن يسألني "لماذا متواضع جدّا".

كـان يمكـن أن أضـيف أنّنـي مضـطرّ لقضـاء أسـبوع كامل بالعاصمة وأنّ نـزلا محترمـا سـيكلّفني كثيـرا ولكنّـي فضّلت الصّمت وقلت أدع السّائق يتآكل من الدّاخل.

توقّفـت التّاكسـي بعـد عشـرين دقيقـة أمـام بنايـة رفعت رأسـي إلى أعلاها فألفيت مكتوبا : "نزل الأنس".

ترجّلـت وأنزلـت حقيبتـي وشـكرت الرّجـل ونقدتـه أجرته ودفعت الباب.

بهو به مقعد خشبيّ طويل يقابله مكتب لـه شـكل نصف دائرة.

على المقعد امرأة نحيفة سـوداء كسـكّة حديـد... صدرها وفخذاها شبه عاريين... تـدخّن بشـراهة سـيجارة رخيصة ولا تكفّ عن الغمز والابتسام...

ووراء المضـرب كهـل سـتّيني بشـارب أبـيض كـثّ وبنظّارات سميكة، تتدلّى من بين أصابعه مسـبحة طويلـة تصل إلى ركبتيْه..

- أريد غرفة بسرير واحد.
- لديّ غرفة بسـريريْن، لـك أن تسـتقلّها وتـدفع وحـدك أجرتها كاملة .

كان عليّ أن أتسلّق وحقيبتي سـلّما ضـيّقا ملتويـا لا تكاد درجاته تكفي لوضع القـدم. انتهيـت بعـد مشـقّة إلـى الغرفـة رقـم 47. فتحـت بابهـا وتركتـه مفتوحـا حتّى يدور الهواء وتخفّ رائحة العطن.

سـريران تفصـل بينهمـا منضـدة مشـتركة ومخـدّة ناشـفة يابسـة وغطاء أسـود رخيص.

استلقيت على السّرير فأزّ أزيزا عاليا مزعجا وبـدا كأنّـه سـيتزحلق وخفـت أن أرتطـم بالجـدار المقـــابل . تحوّلت إلى السّرير الآخر فابتلعتني الحشيّة وشعرت أنّني أغرق.

التقطت رائحة تبغ تتجوّل أمـام غرفتـي فلـم أعرهـا اهتمامـا ولـم أبـال، ولكـن الرّائحـة اقتربـت وأمعنـت فـي الاقتراب حتّى شعرت بها أمام وجهي. رفعـت رأسـي إلـى الباب فألفيت امرأة تهمّ بطرقـه وهـي تلقـي علـيّ التحيّـة وتبتسم.

- تفضّلي، مرحبا.

دخلت. أطفأت سيجارتها في المنفضة السّوداء الصّغيرة وقالت لي بدلال وهي تتعمّد أن تضع عينيها في عينيّ :

- أنت وحدك ؟

أجبتها :

- نعم ،لا أحد معي .

- تحبّش .... حاجة ؟

تظاهرت أنّني لم أدرك مقصدها.

- أشكرك كثيرا. منهك أنا جدّا. جئت العاصمة من قاع البلاد. لديّ وثائق سأستخرجها ولديّ ملفّات نائمة جئت لأحرّكها.

كأنّها أشفقت عليّ.

كأنّها أدركت أنّ رجلا منهكا لن يفيدها في شيء وأنّ نزيلا في رأسه كلّ هذه الهموم لا يمكن أن يلتفت إليها.

انحنت عليّ تقبّلني لتهمّ بعد القبلة بتركي لسريري الأعرج وغطائي الأسود وغرفتي العطنة. شعرت وهي تضع شفتيها الحمراوين جدّا على جبهتي بكميّة الضّوء في الغرفة تخفت ويبدو أنّ الإحساس نفسه سرى

في مقبّلتي. التفتنا معا نحو الباب فألفينا رجلين طويلين عريضين يسدّانه.

- شرطة. قالا معا.

كانت يداهما تقبضان على جهازيْ اتّصال وكان يتدلّى على فخذ كلّ منهما مسدّس أسود.

دقّ قلبي بعنف.

تسارعت دقّاته حتّى خلته سيخرج من مكمنه ويخترق أضلعي ويرتطم بالجدار المقابل.

***

السّاعة الواحدة صباحا.

كنت على وشك أن أنام.

بدأت أنسى ما حدث وأقنعت نفسي أنّني خرجت من الورطة بأخفّ الأضرار.

كنت كالمطمئنّ أو كالفرِح بالنّجاة.

كنت هكذا عندما طُرق الباب بلطف ... ثمّ بعنف.

سألت منفعلا :

- من ؟

- أنا.

كم أكره هذا الجواب.

- من أنت ؟

- افتح من فضلك، أنا موظّف الاستقبال.

حيّاني بسماجة والتفت إلى الرّجل الذي يرافقه وهو يوزّع كلامه بيني وبينه :

- هناك. ها قد وجدنا لك سريرا.

ثمّ جذب الباب وهو يقول لي :

- بربّي سامحنا ،الله غالب، هيّا ليلتك سعيدة.

ثمّ غابت خطواته وراء طقطقات حذائه.

راودتني رغبة في البكاء.

أحببت أن أمسك وجهي بين يديّ وأنتحب.

وضعت الوسادة فوق رأسي وبدأت أنتظر الصّباح.

لم أنم من كلّ تلك السّاعات التي كانت تفصلني عن النّهار الجديد غير دقائق مسروقة متباعدة لا طعم لها. شخير الرّجل كان يملأ رأسي والغرفة ونزل الأنس كلّه، رائحة الكحول كانت تخرج مع شخيره وسعاله حتّى أحسست أنّ رئتيّ تستحمّان في مغطس من التّبغ والخمر.

هممت أن أقول لنفسي :

- ما أتعس هذه اللّيلة ! ما أتعس هذا النّزل ! أو هذا الأنس! ما أتعس ذلك السّائق الذي دلّني عليه!

ولكنّي تراجعت ووجدتني أقول لها:

- ما أتعسني.

***

السّابعة صباحا :

- تفضّل. هذا مفتاح غرفتك، وشكرا.
- ولكنّك قلت إنّك ستقضي معنا أسبوعا كاملا.
- يكفيني ما عانيته البارحة. ليلة البارحة كانت بمائة شهر.
- أرجو أن لا تغادرنا وأنت منزعج.
- منزعج ؟ أنا منشرح جدّا وليلة البارحة كانت بديعة.

على الكرسيّ كانت تلك النّحيفة السّوداء قد أخذت بعد مكانها وأشعلت بعد سيجارتها. جررت حقيبتي بعيدا عنها وعن نزل الأنس وساحته. وقفت أشير إلى سوّاق التّاكسي منتظرا أن يتوقّف لي أحدهم ويحملني إلى أيّ نزل آخر ولمّا أشار إليّ واحد منهم ، غيّرت رأيي. تركته وجررت حقيبتي عازما على أن أبحث بنفسي عن نزل جديد... نزل أنام فيه اليوم واللّيلة تعويضا عمّا لحقني البارحة ...نزل لا تئزّ أسرّته ولا يأتيه السّكارى ليلا ولا تملأ كراسيه المومسات ولا يطرق بابي فيه أحد .

يوم تأنّقت

في ذلك الصّباح، لا أدري لماذا تأنّقت كثيرا...
لا أدري لماذا عنّ لي بمجرّد ما فتحت خزانتي أن أمدّ يدي إلى بدلتي الرّمادية وقميصي الأبيض وربطة عنقي الزّرقاء.
لا أدري أيضا لماذا حلقت ذقني الذي لم ألتفت إليه منذ أيّام ولا أدري لماذا حففت شاربي ولا لماذا لمّعت حذائي ولا لماذا قضيت دقائق أتعطّر ولا أدري أخيرا لماذا بحثت عن نظّاراتي السّوداء العريضة التي أهدانيها يوما سائح فرنسيّ وهو يغادر النّزل الذي كنت أشتغل فيه.
كلّ ما أدريه أنّي فعلت كلّ ذلك وأنا أدندن مبتهجا بأغنية فرنسيّة يقول مطلعها :

la vie est belle !

belle toujours !

سمعت أمّي وأنا أحيّيها وأبتعد في اتّجاه باب الخروج تتمتم بأدعيتها اليوميّة فأمّنت بيني وبين نفسي على دعواتها وجذبت الباب وانطلقت نحو مقهاي المفضّل. سيأتي الجماعة وسنتحلّق حول لعبة الورق وسنتبادل الأخبار القديمة والجديدة وسنأكل لحوم خلق الله إلى أن تنتهي الحصّة الصّباحية فنتفرّق للغداء.

لم يأت بعد من أصحابي أحد.

قال لي النّادل :

- تريد قهوتك الآن ؟

كنت سأقول له :

- نعم ،هاتها أتلهّى بها قبل مجيء أصحابي.

ولكنّ سيّارة سوداء طويلة توقّفت إلى جانبي وأشار إليّ صاحبها بلطف أن أقترب منه:

- صباح النّور.
- صباح الأنوار.
- هل تسمح أن تدلّني على مقرّ مكتب السّيّد الوالي ؟ أقصد بناية الولاية.
- أنت لا تعرف المدينة ؟ تزورها لأوّل مرّة ؟
- نعم.
- إذن لن تعرف الطّريق إلى مقرّ الولاية ولو دللتك عليه. سأركب إلى جانبك وسأرافقك إلى حيث تقصد.

كهل في أواخر الأربعينيّات.

بدت لي ملابسه متواضعة جدّا. هي لا شكّ من "الفريب" أو من الجديد الذي تقادم.

لا يرتدي بدلة ولا ربطة عنق، شعره طويل ويظهر أنّه لم يلتفت إلى ذقنه منذ أيّام.

- تبحث عن مسؤول هناك ؟

لا .أنـا الـوالي الجديـد. أخبرونـي أنّـي سـمّيت واليـا علـى مدينتكم فجئت اكتشفها وألتقي الزّميل الذي سأعوّضه.

- مبارك هذا التّعيين الجديد.
- أشكرك كثيرا.

حدّثته خلال الوقت الذي قطعنـاه مـن المقهـى إلـى بنايـة الولاية عـن المدينـة وأهلهـا وشـواغلها ونواقصـها وحـدّثني عن نيّتـه فـي العمـل لـيلا ونهـارا مـن أجـل أن تخـرج هـذه الولاية من توتّرها وتشـقّ لها طريقا نحو الهدوء ونحو الرّفاه.

ما إن توقّفت السّيارة السّوداء الطّويلة أمـام البنايـة العاليـة حتّى هـبّ والتـفّ حولهـا جماعـات لا أدري مـن أيـن جـاؤوا وأين كـانوا مختبئـين وكيـف علمـوا بمقـدم الـوالي الجديـد. هجموا على نافـذتي وبـدؤوا يعرضـون شـكاويهم... لا أحـد منهم كلّم صاحب السّيّارة.... حشـروا رؤوسـهم عبر نافذتي وبدؤوا يعرضون ملفّاتهم ...

قال شيخ يضع نظّارات سميكة ويمسك مسبحة طويلة :

- سـأكون صريحا معك، الذي سبقك لم يفعل من أجلنـا شـيئا ... لم ينصـت إلينـا ولـم يهـتمّ بنـا. دعـوت عليـه طويلا والحمد لله الذي استجاب لأدعيتي.

قال ذلك وأدخل يده من النّافذة ومدّ لـي منهـا ظرفـا أصـفر منتفخا.

- هنا ستجد كلّ ما أريد قوله وكلّ ما عانيته وكلّ ما أطلبه منك.

وأدخلت من النّافذة امرأة رأسها حتّى تناثر شعرها على وجهي وربطة عنقي ونظّاراتي السّوداء وحتّى ملأ عطرها سيّارة صاحبي :

- منذ زمن وأنا أنتظر الإثبات ثمّ وقع إثبات من جاؤوا بعدي وألحقت أنا كالعادة بقائمة الانتظار. كم عليّ أن أنتظر يا سيادة الوالي ؟ أرجوك هذه وثائقي ومعها رقم هاتفي الشّخصي، عد إلى ملفّي وادرسه وأنصفني.

وقال زوجان كانا يقودان عربة تحوي ابنا لهما به إعاقة :

- انظر إليه... له الله طبعا... وله أنت أيضا... من أين يأكل ويتداوى ؟ لِمَ لا تخصّص له الدّولة منحة قارّة يحيا بها شبه محترم ؟

وهجم على السّيارة مجموعة من الشّبّان يتقدّمهم فتى طويل عريض ذو رأس كبير أصلع وقال :

- كنّا سنسدّ الطّريق ونمنع الدّخول إلى المدينة والخروج منها. نحن لا نطلب شيئا. لا نطلب سوى أن تهتمّوا بنا وتنظروا في ملفّاتِنا وتسوّوا وضعيّاتنا. سننتظرك أسبوعا واحدا ثمّ نعود إليك.

وجاء آخرون يسـدّون الشّـباك ويشـتكون أحـوالهم ويمـدّون ظروفـا وملفّـات ووثـائق ويحلفـون أنّهـم مظلومـون وأنّهـم جائعون وأنّهم لن ينتظروا أكثر.

كنت صـامتا أكتفـي بتحريـك رأسـي ومسـك الوثـائق فيمـا الوالي الجديد مشـدوه تمامـا. ولـم يبـد أنّـه غاضـب لأنّهـم حسـبوني واليا وحسـبوه سـائقي.

نظرت إليه خجلا وقلت :

- الآن أتركك، لك الله.

ولكنّه أمسك بيدي وأعاد تشغيل المحرّك وهو يقول:

- سـأعيدك إلى مقهاك .أريد أن أشـرب ماء باردا .

ران بيننا الصّمت إلى أن نزلنا.

ابتلع الرّجل قارورة مـاء أطفـأ بهـا دهشـته وارتشـف قهـوة عدّل بها أعصـابه ثـمّ ركـب سـيّارته السّـوداء الطّويلـة وهـو يقول لي مبتسـما.

- سـأعود إلى قريتي. شـكرا صديقي. أراك فـي الأفـراح إن شـاء الله.

- لن تعود إلينا ؟ لن تكون الوالي الجديد ؟

حرّك رأسـه يمينا ويسـارا وقال لي :

- طبعا لن أعود إليكم ولن أكون الوالي الجديد.

لكم الله صديقي .

أنا والشّرطي واللّيل

انتهت النّدوة الفكريّة التي نظّمها ودعا إليها مثقّفي الجهة "منتدى محاربة الإرهاب" قبل أذان المغرب بربع ساعة وتواصل الحوار الذي تلاها على امتداد ساعة أخرى.

سلّمت على أصدقائي ورجوت لهم ليلة هانئة وأنا بيني وبين نفسي أغبط الذين سيصِلون منهم ديارهم في غضون بضع دقائق. توجّهت إلى سيّارتي لاعِنًا البرد الذي صفعني منذ خرجت من دار النّدوة واللّيل الذي برك على المدينة باكرا ولفّها في ظلام سيصبح أكثر سوادا حالما أترك ورائي المدينة وآخذ في مواجهة المائة كيلومتر التي تفصلني عن سكناي.

شرعت بمجرّد أن انطلقت السّيّارة ألُوم نفسي كثيرا لأنّه كان عليّ أن أغادر النّدوة قبل حلول الظّلام... هكذا أنا ...لا أميل إلى قيادة سيّارتي ليلا ولا أفعل ذلك إلاّ اضطرارا... اليوم لا شيء كان يجبرني على متابعة المحاضرة إلى آخرها ولا الاستماع إلى كلّ تلك الأسئلة والرّدود... لاح لي وأنا اقترب من آخر مفترق بالمدينة جسد يمدّ يدَه ويستوقفني فلم أتردّد في أن أميل إلى اليمين وأتوقّف لأسمح له بالرّكوب وبداخلي شعور بالفرح لأنّ هذا الرّفيق

سيؤنس وحدتي ويقصّر لي مسافة الرّحلة ويطمئنني... ابتسم الشّرطيّ في وجهي وشكرني كثيرا ثمّ جذب الباب وهو يقول بأدب :

- لا أدري ماذا كنت سأفعل لو لاك ! انطلق على بركة الله.
- العفو، قلت، أنا من يشكرك لأنّك ستؤنسني فالطّريق مظلم وأنا لا أحبّ أن أكون وحيدا في اللّيل...

لم أكن مقتنعا بما قلت... صحيح أنّي أكره أن أسوق سيّارتي ليلا وصحيح أنّ مسافة مائة كيلومتر في هذا الظّلام ستكون طويلة ومخيفة وصحيح أيضا أنّي فرحت للعثور على رفيق أحمله بسيّارتي ويحملني بحديثه، ولكنّ فرحتي تلك تبدّدت بمجرّد أن انتبهت إلى أنّ الذي استوقفني وأركبته رجل أمن في زيّه الرّسمي وتذكّرت أنّه أصبح في اصطحاب أيّ عون شرطة أو حرس أو جيش احتمال لخطر قد ينتهي بالموت ذبحا.

التفتّ إليه ونظرت في وجهه قليلا ثمّ عدت أنظر أمامي ثمّ لا أدري لماذا تركت عيناي الطّريق ثانية وذهبتا تحطّان على رقبته... كانت حمراء سمينة بعروق كبيرة منتفخة. انتبه الرّجل إلى عينيّ تتفحّصان رقبته وبدا على ملامحه شيء كالخوف ولكنّه ابتسم لي وترك ابتسامته

عالقة على شفتيه بضع دقائق... عدت أنتبه إلى الطّريق وضاعفت من سرعتي محاولا أن أتذكّر أيّ شيء يلهيني عن هذه المخاوف التي تراكمت فيّ بمجرّد ركوب رجل شرطة إلى جانبي. لمّا أحسست أنّ السّيّارة أصبحت في وزن ريشة وأنّني لم أعد متحكّما فيها بالقدر المطلوب رفعت قدمي عن دوّاسة السّرعة وزدت من ملازمة يميني ومن الانتباه إلى السّيّارات القادمة من الاتّجاه الآخر حتّى أغيّرَ كلّما واجهتني واحدة أضواءَ الطّريق. دارت رقبتي نحو رفيقي وحطّت عيناي مرّة أخرى على رقبته السّمينة... انتظرت أن ينتبه إلى التفاتتي وأن يُعبّر بشكل مّا عن امتعاضه منها ومنّي... انتظرت أن يخرج عن صمته ويسألني عن نظراتي المتكرّرة نحوه ... ولكنّي لم أر منه امتعاضا ولا اشمئزازا ولا سمعت منه سؤالا ، ولا بدا عليه قلق ممّا أتيت. تقافزت دقّات قلبي وتراكضت ... بدّلت عينيّ نحو الطّريق أتحاشى ما وقعتا عليه. فركتهما جيّدا ثمّ عدت بهما إلى صاحبي. المنظر نفسه : عينان جاحظتان ورقبة مذبوحة يسيل منها دم يفور ويغطّي الصّدر وشعار الجمهوريّة والزّيّ الرّسميّ وينزل إلى كرسيّ السّيّارة وينساب على أرضيّتها. رأيت عروقه التي كانت ملآنة منتفخة تتحرّك وتنتفض وتدفع ما فيها وترتخي... ورأيت وجهه الذي كان ورديًّا يصبح أصفر كليمونة متعفّنة.

أصبحت قدمي تنزل على دوّاسة السّرعة بعنف ثمّ تتركها بعنف أشدّ وصارت السّيّارة تهتزّ وتندفع... ثمّ تهمّ بالتّراجع. قرّرت رغم اللّيل ورغم الخوف، ورغم البرد ورغم الوحدة أن أتوقّف. قلت أدحرج الرّجل حتّى يسقط وأجذب الباب وأمضي ...سيظلّ معي دمه... ولكن لا بأس... شيء من دمه أفضل منه مذبوحا إلى جانبي. مِلت إلى اليمين. كنت قد قطعت نصف المسافة حين أوقفت السّيّارة مستعدّا لدحرجة الرّجل... التفتّ إليه فواجهتني ابتسامته.

- لا باس عليك... تريد التّوقّف لأمر مّا ؟

قلت هي حرارة الرّوح... الرّجل يتكلّم وهو مذبوح ! ونظرت إلى رقبته... فألفيتها سليمة معافاة... نفس الرّقبة التي رأيتها عندما ركب إلى جانبي، لا دم ينزف منها ولا آثار سكّين عليها... الرّجل الذي كنت سأدحرجه وأتركه مرميّا في ظلام اللّيل وفي قلب الصّحراء... ذلـــــــك الرّجل أكاد ،الآن، أحتضنه ...وأقبّله... قلت له متداركا الموقف :

- هل لديك رخصة قيادة ؟ الأضواء أجهدت عينيّ وأحبّ أن أترك لك المقود.

سارع الشّرطي بالنّزول. دار أمام السّيّارة وانتقلتُ أنا إلى مكانه وتركته يُكمِل الرّحلة. مسحت بيدي على كرسيّه ونظرت إليها أتأكّد إن كانت ستعود إليّ مخضّبة بدمه. لم

ينتبه الرّجل إليّ. شرع يقود السّيّارة وهو يدعو لي وله بالسّلامة. مددت يدي إلى زرّ المذياع ففاجأني قارئ الأخبار : "عناصر إرهابيّة تعترض سبيل عون أمن وهو في طريق عودته إلى بيته وتذبحه ويفصل رأسه عن جسده".

عادت يدي تضغط على الزرّ وتكتم صوت المذيع.

- حسنا فعلت، قال الشّرطي. لم أعد أطيق هذه الأخبار.

وصلنا المدينة بعد ساعة. نزل الرّجل قريبا من حيّ الأنس الذي يسكنه. وتحوّلت أنا إلى المقود. شكرني كثيرا ورجا لي ليلة سعيدة ثمّ ابتسم في وجهي ومضى.

- تصبح على خير، قلت له.

وانطلقت نحو آخر حيّ في المدينة حيث أقيم.

قالت زوجتي :

- وجهك ذابل وأطرافك ترتعد، ما بك ؟

- دثّريني الآن. غدا أروي لك ما رأيته اللّيلة.

صباحا كان خبر ذبح رجل شّرطة ليلة البارحة وهو في طريقه إلى بيته بحيّ الأنس يملأ كلّ ديار المدينة ومقاهيها وشوارعها.

وغلّقت الأبواب

كان الشّارع الرّئيسي الذي يعبرانه بسيّارتهما الفارهة شبه خال. الطّقس كان يميل إلى البرود وأرقام السّاعة الجداريّة المنتصبة في شموخ تحرس ليل المدينة تشير إلى ما بعد العاشرة بقليل... كانت السّيارة تتهادى ببطء شديد. وكانت الموسيقى خافتة بالقدر الذي يسمح لـ"زينب" و"عزيز" أن يتجاذبا الكلام حول السّهرة التي انتهت للتوّ وما قدّم لهما فيها ومَن لاقيا من الأحباب والزّملاء والزّميلات ومن تعرّفا إليه من أصدقاء جدد... كانا هكذا... سرعة ميّتة وموسيقى خافتة وطريق كأنّه تُرك لهما دون النّاس جميعا وبداية سهرة ثانية.

كانا هكذا... عندما التقطتها في اللّحظة نفسها عيناهما. كانت جالسة على أهبة الوقوف أو واقفة كأنّها ستجلس... لا أحد بجوارها في المقعد الخشبيّ الطّويل. لا يبدو أنّها تنتظر أحدا والوقت ليس مناسبا لانتظار أيّ أحد. مالت السّيّارة نحو مقعد الفتاة. توقّفت. نزل البلّور. لم تنتظر الفتاة إشارة. أطلّت على الزّوجين عبر النّافذة التي فتحت لها. بهرت فتنة وجهها وجمال عينيها وطول شعرها الإثنين معا ...سألاها في آن واحد :

- ما الذي تفعلينه وحيدة في هذا اللّيل البارد ؟
- لا شيء

- تنتظرين أحدا ؟
- لا

التفت "عزيز" إلى زوجته وتبادل معها نظرة قصيرة قبل أن يقول الاثنان للبنت معا:

- اركبي .

استطاعا أن يعرفا قبل أن يبلغا الدّار أنّ هذه الجميلة أطردت اللّيلة من بيت مشغّلها أو مشغّلتها ورميت في قلب الشّارع وحُظرَ عليها أن تعود أو تقترب من ساحة الدّار واستطاعا أن يكتشفا أنّ أبويها سلّماها لمشغّلتها منذ عامين وأنّها لم ترهما ولم تر إخوتها منذ ذلك التّاريخ غير مرّتين اثنتين.

دلّت "زينب" الفتاة على غرفة منزوية وعادت إلى زوجها تسبّ وتلعن تلك التي رمت في ليل كهذا بنتا كالوردة في قلب شارع خال.

صباحا ، دار الزّوجان حول الوردة. تأمّلاها. سمعا كلامها. سألاها. ثمّ قالت الزّوجة :

- نكرم مثواها عسى أن نتّخذها بنتا تؤنس وحدتنا وتعيننا على البيت وننال فيها ثوابا.

وأصبحت للزّوجين بنت لئن كانت من صلب الشّارع فإنّهما بمرور الوقت أحبّاها وبدآ يتلذّذان حبّها. لـ"زينب" الآن من

يعينها على شؤون البيت و لـ"عزيز" بنت يربّت على كتفها ويلاعبها ويقصّ عليها أحسن القصص.
وأصبحت "فاتن" بنت "عزيز" و"زينب".
أصبحت لهما كأنّهما والداها وكأنّها ابنتهما مذ خلقت ... وباتت تجد في حياتها الجديدة لذّة لا تضاهى.
كبرت "فاتن".
تورّدت.
وضجّ جسمها باللّحم وتوضّحّت تفاصيله وزاد جمالها إشراقا حتّى أصبحت "زينب" تمنعها من الخروج للعطّار ولا تسمح لها بارتياد الحمّام إلّا برفقتها.
كبرت "فاتن" قبل أوانها حتّى باتت "زينب" تخشى أن يراها أحد ويتقدّم لخطبتها وحتّى أصبح "عزيز" يخشى على نفسه منها.
منذ مدّة و"عزيز" يتقلّب على الجمر.
صورة "فاتن" ماثلة أمام عينيه في صحوه ومنامه.
خشي على نفسه منها.
ثمّ أصبح يخشى عليها من نفسه ...
حاول أن يكبح جماحه الهارب منه وأن يقتنع أنّها ابنته أو كابنته وأنّ بينه وبينها أكثر من ثلاثين عاما وأنّها بمثابة الأمانة وأنّه ليس من المروءة أن يفكّر في غير امرأته الجميلة حتّى لو كان هذا الغير فتنة متحرّكة تعيش معه

وتجمعه بها دار واحدة وينغلق عليه معها باب واحد وتفصل بين غرفتيْ نومهما أمتار قليلة.

حاول "عزيز" طويلا أن يخمد جنونه ولكنّ نفسه الأمّارة بالشّهوة وبالمغامرة أقنعته أنّ هذه الفتاة ليست ابنته وأنّه لم يلدها ولم يلد غيرها وأن لا أحد ائتمنه عليها وأنّ زوجته ظلمته حين آوتها وأن لا شيء يحول بينه وبين نيل رغبته منها .

لم تنتبه "زينب" إلى أرقه وعذابه واهتمامه المتزايد بـ"فاتن" ولم تعتبر "فاتن" اهتمامه بها غير دلال يخصّ به أب ابنته الوحيدة.

لا أحد انتبه إلى ما يعتمل في صدر "عزيز" ...إلى أن فاض كأسه وفاجأها ذات ضحى في غرفتها...

سمعت زوجته وهي داخلة أصوات حوار كالخصام تصعد وتنزل وتموت حينا لتبعث عالية من جديد... تتبّعت مصدر الصّوت فقادتها قدماها إلى غرفة ابنتها.

- هو سيّدتي. إنّه هو... هو من راودني عن نفسي فأبيت ولكنّه أصرّ واستمات في الهجوم عليّ... انظري سيّدتي فستاني من أين ترينه قُدَّ؟

قالت ذلك واستدارت واضعة كتفيها أمام عينيْ مشغّلتها التي استوعبت تماما أنّ الفتاة كانت في وضع هروب وأنّ زوجها كان يلاحقها.

دخلـت المعينـة غرفتهـا فلملمـت سـريعا أثوابهـا وخرجـت تواجه الطّريق ولملمت "زينـب" سـريعا بعـض أثـواب زوجهـا وأغراضه ودفعته أمامها حتّى جاوزت بـه البـاب الخـارجيّ... وغلّقت الأبواب.

أنا آسف جدّا.

أنا آسف.

أنا آسف جدّا.
آسف لأنّني غادرتكم بانطباع سيّء .
ما تصوّرت أبدا أن يصل بكم الأمر إلى أن تتنكّروا لمن يعاشركم طويلا ويقضي عمره في الذّود عنكم.
آسف لأنّني لم أكن أنتظر الكثير ولا أطلب المستحيل وكان يمكن أن ألوّح إليكم الآن وأنا بعيد عنكم بقبلاتي لو اهتممتم بي قليلا وقدّرتموني حقّ قدري.
أنتم هكذا.
تنسون سريعا.
كأنّكم تعيشون بلا ذاكرة.
تصطفّون وراء ذوي المال والجاه والسّلطة أحياء وميّتين.
ولا يعنيكم من أمر البسطاء شيء.
حتّى لو كانوا أوفياء لكم.
حتّى لو أحبّوكم.
حتّى لو ماتوا لإنقاذكم.
كان يمكن أن تخصّصوا إحدى حصصكم الكثيرة لتفصّلوا القول في ما أقدمت عليه من أجلكم.
كان يمكن أن تجرُوا حوارا أو أكثر مع أهلي... مع من ربّاني وأطعمني وعلّمني حتّى جعلني سويّا وغرس فيّ الغيرة حتّى على من ليسوا من بني جلدتي والموت إن اقتضى الأمر من أجلهم.

كان يمكن أن تتبعوني في جنازة تبثّ لقطاتها تلفزاتكم وأن تترحّموا عليّ وأن يؤبّنني واحد منكم يحسن الحديث عن الشّجاعة والوفاء ويقدّر ما معنى أن يموت واحد من أجل أن يحيا الآخرون.

راودتني والرّصاص ينهمر فكرة الاختباء في ركن إحدى الحافلات القريبة أو المباني المجاورة.

وراودتني فكرة الفرار من مكان الحادث وكان ممكنا جدّا ألّا أظهر إلّا حين يسكت الرّصاص وتستعيد السّاحة عافيتها.

كان ممكنا جدّا أن ألوذ بالفرار وألّا أعو د إلاّ بعدما تنتهي المجزرة ويعمّ الهدوء من جديد.

ولكنّي قاومت نداء الجبن وغلبته.

ولم أختبئ.

ولم أفرّ.

وارتميت داخل المعمعة ليوجّه نحوي العدوّ كل فوهات بنادقه وليمزّقني الرّصاص.

قلت المهمّ ألّا أجبن.

المهمّ أن أموت على شرف.

أن أقضي نحبي شريفا وأشرف من الكثيرين.

وأن أبرهن على أنّ الوفاء ليس كلاما يقال ولا شعارات تُمجّ.

أنا آسف جدّا.

آسف لأنّي كنت معكم ولكم.
وبذلت روحي التي أحبّها جدّا من أجلكم، غير أنّكم بخلتم عليّ بكلمات تأبين استحقّها وبجنازة كانت ستزيدكم شرفا.
بخلتم عليّ بالعَلم الأحمر الذي متّ من أجله تغطّون به تابوتي وبفاتحة وتأمين لا يستغرقان خمس دقائق وبحصّة تلفزيّة أطلّ عليكم خلالها من هنا من دار الحقّ أذكّر فيها المشاهدين بما فعلت من أجلهم.
كم هو سهل لديكم أن تتنكّروا لمن عاشركم وخدمكم وألقى بنفسه إلى الرّصاص ليموت وتحيوا.
عندما اخترقت الرّصاصات صدري، لم يبدر منّي صوت... قلت لن يفيدني الصّياح والتّوجع في شيء...
لذت بالصّمت إلى أن لفظت نفسي الأخير.
وقتها لم أتألّم. غمرني شعور بالزّهو وبالفخر. ورأيت الجنّة تشرع أبوابها أمامي وأذكر أنّي ابتسمت ولعلّني غادرتكم مبتسما.
مساحة الألم في صدري الآن بحجم الرّصاص الذي اخترقني وبحجم الدّم الذي انهمر منّي.
آسف أنا جدّا لأنّكم خنتموني.
أنتم هكذا.
تخونون الأوفياء.

أهـديتكم روحـي وبخلـتم علـيّ بقبـر ألملِـم فيـه جرحـي وأنكفـئ فيـه، وبعلَـم أتغطّـى بـه وبكلمـة وفـاء تليـق بمـا أقدمت عليه من أجلكم.

آسف أنا جدّا.

ولكنّي فرح لأنّني ابتعـدت عـنكم وتـركتكم فـي دار الباطـل ولأنّي لن أراكم.

أنتم أيضا لن ترونني.

لن تروا الكلب "عقيل"* بعد اليوم.

** الكلب" عقيل" من فرقة الأنياب ويبلغ من العمر سنة ونصف، قتل أثناء تبادل إطلاق النّار بين الوحدات الأمنية المختصّة وجماعة من الارهابيّين يوم الاربعاء 18مارس2015 بمتحف باردو وقد انتهت العمليّة بمقتل منفذيْها و 17 سائحا ورجل أمن وتونسيّين ، وأصيب نحو 50 آخرين بجروح..*

يوم من أيّام "عبد الخالق"

لا يذكر "عبد الخالق" أنّه مرّ عليه يوم كمثل يومه هذا.
بدأ سوء الحظّ يلازمه منذ الصّباح...

لم يعتد "عبد الخالق" أن ينهض من نومه قبل السّابعة. اليوم لا يدري لماذا جافاه النّوم منذ الثّالثة فجرا. ظلّ يتقلّب ويحاول أن يستعيد نومه ومرّت طويلة تلك السّاعات قبل أن يترك الفراش وينهض ويستعدّ لبدء نهاره الجديد.

اتّجه إلى المغسل ففوجئ بانقطاع الماء واضطرّ إلى أن يتدبّر أمره ويغتسل بما تبقّى في قارورة مياه معدنيّة.

وهو يحلق ذقنه جرحت الموسى وجهه مرّتين واختلط دمه الأحمر برغوة صابون الحلاقة الأبيض.

أشعل الموقد ووضع عليه إبريق القهوة، ثمّ لمّا استوت وأراد ارتشافها انتبه إلى أنّ علبة السّكّر فارغة يصفّر في جوانبها الرّيح. شرب قهوته مُرّة وعاد إلى غرفته ليرتدي ملابسه. لبس سترة بيضاء سرعان ما أعاد نزعها وذهب يستبدلها بأخرى بمجرّد ما انتبه إلى بقعة زرقاء في لون الحبر تغطّي وسطها.

وضع قدميه في حذائه على عجل ولكنّه وهو يشدّه، جذبه بعصبيّة فتقطّع خيطه واضطرّ إلى أن يخرج بحذائه بخيط مقطوع.

وصل المحطّة فقيل له إنّ الحافلة انطلقت للتوّ. وظلّ ينتظر نصف ساعة آخر قبل أن تتوقّف تاكسي وتحمله إلى مقرّ عمله. وعلى امتداد عشرين دقيقة أخرى ظلّ "عبد

الخـالق" تحـت رحمـة السّـائق الـذي كـان يثرثـر ويسـعل ويدخّن ويضحك ببلاهة.
عندما توقّفت التّاكسـي ونزل منها سـقطت قدماه في بركة مـاء فابتـلّ حـذاؤه وطـرف سـرواله، ودخـل الإدارة بسـروال وحذاء ملطّخيْن بمـاء آسـن. فـتح مكتبـه فتبعـه جريـا عـون الاستقبال ومدّ إليه نـصّ اسـتجواب أعـدّه لـه المـدير حـول التّأخير.
استعاذ بالله من شرّ هذا اليوم ومن شـرّ شـياطينه وانكـبّ على الورقة يملأهـا قبـل أن يشـرع فـي معالجـة الملفّـات المتراكمة أمامه.
وهو يباشر الملفّ الأوّل وصـلته إرسـاليّة قصـيرة مـن أخيـه الطّالب الجامعيّ يخبره فيها أنّه لم يعـد لديـه ملّـيم واحـد وأنّ عليـه أن ينقـذه اليـوم بحوّالـة بريديّـة سـريعة تفـي بمصاريف ما بقي من الشّـهر.
وضع رأسـه بين يديه وهمّ بضربه على المكتب ولكنّه وقـف وترك أعماله متّجها نحو مكتب زميلته "سلوى"... مـدّت لـه "سـلوى" فنجـان قهوتهـا ومـا إن بـدأ يرتشـف منـه حتّـى شرعت تشكو له سلوك زوجها معها وما ألحقه بها البارحة من إهانات. تركها تهذي ناويا أن يجوب بقيّة المكاتب ولكنّه غيّر رأيه وعـاد إلـى ملفّاتـه. دفـن عينيـه بـين أوراقهـا إلـى حدود منتصف النّهار.

من عادته أن يجلب معه خبزا وجبنا وقارورة ماء، لا يدري لم اليوم لم يجلب لنفسه شيئا. اتّجه إلى أقرب مطعم ملاصق لإدارته، تناول صحنا بخمسة دنانير وعاد إلى أوراقه المتراكمة. ما إن شرع فيها من جديد حتّى اعتصر بطنه ألم أحسّ معه كأنّ سكّينا تفتك بأحشائه. أمسك بيده بطنه ووضع يده الأخرى على فمه وأسرع نحو المغسل. ظلّ هناك لربع ساعة قاء فيها كلّ ما أكل وشرب... قهوته المرّة وقهوة "سلوى" الباردة وصحن الطّبّاخ. اغتسل بالماء البارد وعاد مترنّحا إلى مكتبه. انتبه إلى حالته زميل له فشجّعه على الاسترخاص وتطوّع ليوصله إلى بيته بسيّارته الخاصّة.

عندما ابتعدت السّيّارة عن الإدارة بخمس دقائق أخذت تتباطأ وتتلكّأ ثمّ سكتت أصواتها وتوقّفت تماما واضطرّ "عبد الخالق" إلى أن يستعين بجمع من المارّة ليدفعوها من الخلف وتطلّب الأمر جهدا ووقتا قبل أن يدور المحرّك من جديد.

عندما فتح باب الدّار تذكّر أنّه لم يرسل حوّالة أخيه الطّالب. عاد إلى إغلاق الباب واتّجه نحو مركز البريد.

قال للموظّفة "أريد أن أرسل حوّالة برقيّة"، فنهره شابّ كان يقف على مقربة من النّافذة ووجّه له أمرا شديد

اللّهجة بانتظار دوره ووصفه بالهمجيّة والأنانيّة وبأوصاف أخرى.

انتظر دوره وأرسل الحوّالة وخرج منكّس الرأس. عثرت قدمه في المدارج وكاد يسقط لولا أن أسنده رجل كان يتّجه نحو باب الدّخول. لم يكفّ طوال عودته من مركز البريد إلى داره عن الدّعاء باللّعنة على الحافلة التي لم تنتظره وصاحب التّاكسي الذي نفث في وجهه على امتداد عشرين دقيقة تبغه وسعاله وهذيانه قبل أن يغرقه في بركة ماء آسن ، والمدير الذي سارع باستجوابه لمجرّد تأخير لا يحدث دائما، وموظّف الاستقبال الذي لم ينتظر ليمدّه بالورقة أن يطلع النّهار ويتحسّن مزاجه، وسلوى التي مدّت إليه قهوة باردة وملأت رأسه بهذرها عمّا يفعله فيها زوجها كلّ يوم، والطّباخ الذي فتك بامعائه، وأخيه الطّالب الذي لا يشبع من الحوّالات البريديّة والشابّ الذي أهانه واتّهمه بالهمجيّة.

وصل منزله منهكا ولكنّه كان سعيدا لأنّه سينام لينسى يومه.

أدخل يده في جيبه يبحث عن مفاتيحه فعادت إليه يده بيضاء لا شيء فيها.

بحث في كلّ جيوبه.

لم يعثر لمفاتيحه على أثر.

مفاجأتان

1

كانت "سعيدة" نجمة من نجمات المدينة.
وكنت أنا "عبد القادر الباهي" شابّا عاديّا جدّا أو أقلّ من ذلك بكثير.
كانت تتمتّع ببدن ممتلئ متناسق مثير.
وكنت نحيفا كعود ثقاب.
كانت ذات عينين واسعتين صافيتين فيهما سحر عجيب.
وكان النّاس يقولون عن عينيّ إنّهما ضيّقتان وغائرتان.
كانت في الرّابعة والعشرين.
وكنت قد جاوزت الثّلاثين.

2

عندما بلغتني موافقتها، زغردت من فرط فرحتها روحي.
نظرت إليّ في المرآة فوجدتني في وسامة "يوسف"،

وقفت أتأمّل "يوسف" مليّا فألفيته قويّا ممتلئا متناسقا مثيرا.
وخرجت أجوب المدينة فرأيت عيون الرّجال تسيل حسدا وسمعتهم يسبّون الحظّ سبّا مرّا لا يطاق ويقولون عنه إنّه أبله وأعمى.

3

بدأت أصدّق منذ أيّامي الأولى مع "عبد القادر" أنّ الحبّ الحقيقيّ يبدأ بعد الزّواج ...شيئا فشيئا ينمو ويكبر ويصبح صرحا عاليا .
كان يكفيني أنّه يهيم بي وأنّني بدأت أطمئنّ إليه ، وكان مهمّا أنّني انتقلت من امرأة يتردّد ذهنها كلّ ليلة بين وجوه عديدة إلى امرأة استقرّت أخيرا على وجه وحيد.

4

صدّقت بعد أن جاء بكرنا "وحيد" أنّي تزوّجت فعلا "سعيدة" وأنّها أصبحت لي.

قبل ذلك كان يعتريني إحساس أنّني أحلم، أو...أتخيّل...
أو ...أنّني واهم...
وأنّ طيفها وحده يعيش معي.
جاء فملأ الدّنيا وشغل أبويه وأهلهما...
وقال الذين رأوه إنّه نسخة منّـ.....ا .
منها أخذ عينيها الجميلتين ووجنتيها المكتنزتين الورديّتين ومنّي أخذ أذنيّ الطّويلتين وأنفي العريض.

5

بمجرّد أن تأكّدت لي ولطبيب العائلة حالتي، أسرع زوجي يتدبّر أمره وينقلني إلى مصحّة عيون خاصّة.
أُجريت لي تحاليل عديدة وصور مختلفة واجتمع الأطبّاء واتّفقوا على ضرورة إجراء عمليّة مستعجلة.
سألناهم :

- ما درجة حظّ نجاح هذه العمليّة المستعجلة ؟

فلم يتجرّأ أحد منهم على أيّ جواب .

قالوا :

- لا مناص من إجراء التّدخّل الجراحيّ على العين اليمنى في انتظار أن تُجرى تدخّل آخر على العين الأخرى بعد شهر.

6

تركت حيرتي تنتظر وشرعت في مسيرة علاجها التي لم تكن تحتمل أيّ تأخير.

قال طبيب العائلة عندما ذهبت أوّل مرّة تشتكي إليه ما أصاب عينيها فجأة من ضبابيّة كثيفة استحالت معها أو كادت الرّؤية من بعيد ووحدها الصّور القريبة جدّا أصبحت في متناول الإبصار إنّها حالة نادرة لا تحدث دائما .

وقال كبير أطبّاء مصحّة العيون إنّه وفريقه يتوقّعون كلّ شيء، قد تعود العينان إلى الإبصار وقد لا تؤدّي العمليّة التي لا مناص منها إلى أيّ بصيص نور آخر.

7

مفاجأتان لا أظنّ أنّي عشت أو أنّي سأعيش أشدّ منهما وقعا وأكثر منهما ألما.
أمّا الأولى فعماي الذي لم تفد في علاجه الأدوية والعمليّات والذي سلّمت به وقلت هو من عند الله ولا فائدة في الاعتراض عليه.
وأمّا الثّانية، فهزّتني من الدّاخل وكادت تذهب بصوابي.
كادت تذهب بصوابي فقط لأنّي لم أتوقّعها،
ولم أتوقّع فاعلها،
ولا توقيتها...
تركت المصحّة وعدت إلى البيت يائسة وشبه عمياء،
اقترح عليّ زوجي أن تستضيفني أمّي أيّاما ريثما أتعافى من آثار الجراحة ولتهتمّ بولدي "وحيد" فاستلطفت اقتراحه.
بدأت مكالماته الهاتفيّة تتناقص ...
ثمّ تناقصت إثرها زياراته وزيارات أهله لي وللولد ...
ثم اختفى تماما صوتا وصورة .

ثمّ جاءني من يخبرني أنّ زوجي رفع ضدّي قضيّة طلاق للضّرر الفادح وأنّ الإجراءات تسير حثيثة جدّا ثمّ بدأت في الانتشار أخبار مؤكّدة عن قرب زواجه.

كنت في غرفتي بين كتبي وأوراقي وأقلامي وهاتفي وأصوات الشّاشة وإرساليّات صفحتي الفايسبوكية ... كنت غارقا في كلّ ذلك أوزّع عينيّ بين الرّفوف أبحث فيها عن مرجع أستعين به في بحث طُلب منّي وهاتفي أردّ على مكالمات أصدقاء لي يهنّؤونني بالفوز في انتخابات رابطة المبدعين والتّلفزة أتابع فيها مسلسلا هزليّا شاهدته مرارا ومازلت مصرّا على أن أعطيه من وقتي كلّما وافق عرضه وجودي بالبيت وحاسوبي أتواصل من خلاله مع أصدقائي الكثيرين ... دخلت زوجتي غرفتي أربع مرّات متتالية ، مرّة أولى مدّت إليّ فيها كأس شاي ووقفت هامّة بالكلام ولكنّها لم تتكلّم ومضت ومرّة ثانية جلبت فيها قارورة ماء بارد وضعتها إلى جانب كأس الشّاي الفائر وأطلقت نحنحة ثمّ اتّجهت نحو الباب ومرّة ثالثة وضعت فيها إلى جانب الشّاي والماء عصير غلال ووقفت وأطالت الوقوف وخفّضت صوت التّلفزة ورفعت صوتها بالنّحنحة ثم اندفعت خارجة ومرّة رابعة أطفأت فيها جهاز التلّفزة وجلست قبالتي وقـالت لي :

- اسمع "عيّاد"، اترك قليلا من فضلك هذا العالم الذي أنت غارق فيه. يجب أن نتحدّث .

- تفضّلي .خيرا إن شاء الله .

_هو خير .اسمع. ثمّة كلام كرّرته على مسمعك مرارا ولم تعلّق عليه. الآن تجيبني .الآن نضع حدّا لهذا العبث .

- لا أفهم من كلامك شيئا .

لم أكن صادقا فأنا أدرك ما تعنيه.

- سأعفيك من التّفاصيل . لن نخوض في شيء منها ولن نعود إلى ما فات .أنت رجل لك كتبك وأوراقك ولك هاتفك الذي لا يكفّ عن استقبال وإرسال الكلام المسموع والمكتوب ولك في حاسوبك خمسة آلاف شخص يأخذونك منّي ويشغلونك عنّي وأنا امرأة لا أحبّ أن أكون سجنا لأحد ولا أحبّ أن أكون على هامش أيّ كان .

-هل ترينني مقصّرا يا "حياة" ؟

تذكّرت أنّي حذفت ياء المنادى من اسم زوجتي بعد أن مرّ على زواجنا عام واحد.

كانت "حياتي " فأصبحت "حياة ".

جلجلت ضحكتها في أرجاء الغرفة .

- لست مقصّرا ؟

- ما هو المطلوب بالضّبط ؟

- ننهي ارتباطنا بسلام . عش لدنياك وأعيش لنفسي.

ذاك كان الحوار الأخير ... ولا أدري من منّا طلّق الآخر ...هي اقترحت وأنا وافقت... هي شجّعتني وأنا رفعت

قضيّة لدى المحكمة... وشجّع القاضي على تسريع إجراء الانفصال أن ليس بيني وبين "حياة " ولد ولا بنت .
عادت طليقتي إلى بيت أهلها غير آسفة على رجل أغلب وقته بين الكلام المسموع والمرئيّ والمكتوب ومع أشخاص أغلبهم افتراضيّون ومع نساء أنسينه أنّ له زوجة كالوردة تعيش معه على مرمى ريشة منهنّ.
عادت "حياة" إلى أهلها وتركتني وحيدا في بيت الكراء منهمكا في دنيا التّلفزة والحاسوب والكتب والأوراق.

أصبحت حرّا ... أقرأ دون ما خوف من أن أضبط بصدد معاشرة كتاب... أكتب دون أن يقطع أفكاري لوم أو توبيخ أو حتّى كأس شاي...ألتقي أصدقائي صوتا وصورة وأشاهدهم وأكلّمهم دون خوف ولا وجل ولا وخز ضمير. الجوع وحده أقلقني وحدّ من متعة حياتي الجديدة... أنا رجل أكول و"حياة" كانت طبّاخة ماهرة وصنّافة بديعة. الآن أنا وحدي... عوّلت على الأكلات الجافّة ثم سرعان ما عزفتها وهجرتها ...اختلفت إلى المطاعم ولكنّ ضرّها كان أكثر من نفعها ثمّ جاء الحلّ على يد زميلتي "سلوى" حين شكوت إليها جوعي وجهلي بفنون الطّبخ وبخلي عن إعداد الطّعام:

- سأبحث لك عن امرأة تقوم بشؤون مطبخك وتخلّصك من الأكلات الجافّة ووجبات المطاعم وترتّب كتبك وأوراقك وتنال فيها ثوابا.

شكرتها كثيرا على اقتراحها وعلى مساعدتها ومددتها بعنوان سكني واقتضى الأمر أن أنتظر أسبوعا لتحلّ بالبيت امرأة.

- آلو .

- مرحبا.

- افتح بابك ،المرأة التي طلبتها على مسافة خطوات منك .

- شكرا ، شكرا "سلوى".

تركت نساء أخريات ينتظرن وأسرعت أفتح للمعينة الجديدة .جذبت الباب بسرعة وقلت للواقفة وراءه مطأطئة:

- تفضّلي.

لم أتأمّل تفاصيلها ...ألقيت نظرة عامّة لم ألحقها بأخرى. هي أيضا لم ترفع إليّ عينيها... دخلنا... أريتها البيت وتركتها تكتشفه وحدّثتها عن المأكولات التي أحبّها واقترحت عليها أجرة شهريّة فوافقت على المبلغ واشترطت أن تناله مقسّما على أسابيع الشّهر الأربعة .

عندما همّت بالمغادرة تحرّك فيّ الفضول فأرسلت عينيّ إلى وجهها تتأمّلانه ...انتفضت ذاكرتي وقالت لي:

-إنّها هي.

قلت لها :

- يخلق من الشّبه ما يشاء .

ردّت:

- الوجه وجهها لا شيء فيه تغيّر عدا ما سطّره الزّمن من أثر.

قلت لذاكرتي :

- ما علاقة هذه بتلك ؟ تلك فتاة تعيش في ريف بعيد وهذه معينة منزليّة تشتغل بين ديار العاصمة .

قالت ذاكرتي :

- أنت لا تثق بي. لديّ حلّ ، دعها تراك، دعها تتجاوز خجلها وتنظر في وجهك وانظر إن كان مرآك سيثير ذاكرتها.

قلت لها:

- الآن افعل .

سألتها:

ما اسمك من فضلك ؟

- «مفيدة".

ابتعدت عن معينتك خطوات ... أدخلت يدك في جيبك وأخرجتها ماسكة بورقتين نقديتّين من فئة العشرين دينارا ثمّ ناديتها وتعمّدت أن ترفع صوتك حتّى ترفع وجهها .

أخيرا، حطّ نظرها عليك ... ولم يبد أنّها ارتبكت أو أنّ شكّا راودها في أنّها التقتك ذات يوم أو أنّ ذاكرتها خاطبتها قائلة "ليس هذا الرّجل بغريب عليك"... تسلّمت الورقتين وشكرتك ومضت.

أوصدت أبواب عالمك الافتراضي والاتّصالي وتمدّدت على سريرك وأخذت تحدّق في السّقف.

هل كنت تحدّق في السّقف أم كنت تسترجع ذكريات تعود إلى ثلاثة عشر عاما مضت؟

هو الآن أمامك...شابّ في الخامسة والعشرين يدرّس الصّبية بإحدى مدارس قرى الجنوب الصّغيرة... يتسوّغ وحيدا محلّا بغرفتين لا يبعد كثيرا عن المدرسة وعن المحيطين بها ...يثير شفقة إحدى العائلات فتعلمه أنّها متكفّلة بوجبة غداءه على امتداد أشهر السّنة الدراسيّة وتضطلع للقيام بمهمّة جلب الطّعام البنت الكبرى .. فتاة في الخامسة عشر ربيعا... تأتي فتضع الطّعام وتغادر... يتسلّمه منها ويشكرها ويطيل شكرها ... تجرّأ يوما والعام الدّراسي يلملم أوراقه الأخيرة وأمسك يدها وضغط عليها فاستلّتها منه بسرعة وفرّت بسرعة أسرع ...ألمّ به خوف ممّا أتاه وممّا قد يؤول إليه الأمر إن هي اشتكته إلى عائلتها

وظلّ يرتعد إلى أن أطلّت عليه في اليوم الموالي بين يديها صحنه المعتاد... همّ بالاعتذار إليها فأمسكت يده وضغطت عليــها...

وأكل اللّحم اللّحم ...

يوم لملم أدباشه، بكته طويلا ...أمّا هو فغمره فرح عارم لأنّه في النّهاية لا أحد تفطّن إلى كلّ تلك الأوقات المسروقة معها.

ماذا حدث بعد ذلك ؟

هو لا يدري شيئا.

ولكنّ ذاكرته تقول له الآن:

- هذه المعينة التي جاءت لتهتمّ بأكلك وأنت وحيد بعد طلاقك هي نفسها تلك الفتاة التي كانت تجلب لك غداءك كلّ يوم وأنت شابّ أعزب بمدرسة قريتها البعيدة.

تركت التّعليم والتحقت بالجامعة من جديد وتخرّجت مدير مركّب ثقافي كبير وتزوّجت ثمّ استرحت من الزّواج وها أنت وحدك من جديد.

ليكن اسمها الآن "مفيدة". ليس هذا مهمّا ،ستعرف غدا اسمها الحقيقيّ إن أنت تجرّأت وطلبت بطاقة هويّتها ...تلك البطاقة ستنبئك عن الاسم واللّقب والوالدين ومكان الولادة وتاريخها وستزيل من أمامك كلّ غموض.

لتكن الآن معينة في ديار العاصمة. ليس هذا مهمّا. النّازحات من القرى للعمل في البيوت كثيرات وبلا عدّ.
ليكن أنّها لم تتذكّرك. ليس هذا أيضا مهمّا.
أنت تبدّلت كثيرا... ضجّ جسمك باللّحم وابيضّ وجهك وكنت طويلا فقصرت وكانت أسنانك سوداء متداخلة فانتظمت وأصبحت في لون الحليب.
لم يكن ممكنا أن تنتظر صباح الغد فهاتفت "سلوى" وطلبت منها أن توصي معينتك بإحضار بطاقتها .
جاءتك صباحا وقالت لك خجلة :

- لديّ طلب لو سمحت.
- فهمتك .ليست لديك بطاقة ؟
- لديّ بطاقة طبعا.

قالت ذلك ومدّتها إليك.
-هل تسمح لي أن أصطحب ولدي ؟
قلت لذاكرتك مزهوّا :

- اعترفي الآن أنّي هزمتك.ها "مفيدة" امرأة متزوّجة يشهد على أنّها ليست تلك الفتاة التي ذهب إليها ظنّك هذا الولد الذي تستأذنك في أن تصطحبه إلى بيتك.
- كم عمره وأين أبوه ؟
- عمره اثنا عشر عاما .

ثمّ وبعد صمت:

- أنا أمّه وأبوه.

بدأت تقرأ بياناتها على البطاقة.

تثبّت وأعدت التّثبّت.

فبدأت تسمع كأنّ ضحكا ساخرا يجلجل حواليك.

تعرف مصدر هذا الضّحك السّاخر جيّدا.

هي هكذا .

ذاكرتك هكذا.

تعلن انتصارها ضحكا ساخرا .

خبر عاجل

لا أحـد يعـرف تقريبـا كيـف راج الخبـر وكيـف تداولـه النّاس وكيف سرت عدواه بين الكثيرين وكيف بـات الحـديث اليوميّ في المقاهي والبيوت والزّوايا والشّـوارع والمكاتـب والأسـواق.

قيل إنّ أصل الحكاية ثراء فـاحش ظهـر دفعـة واحـدة علـى عامل البناء "حمّودة" الذي استبدل فـي عـام واحـد كوخـه بدار كالقصر ودرّاجته بسيّارة كالسّـفينة ثمّ طال التّغيير كـلّ نواحي حياته وحياة زوجته وأطفاله وتحوّلـت وجـوههم مـن لون الرّماد إلى لون الرّمان وضجّت بـاللّحم أجسـادهم وقـد كانت خاوية وأصبحت ترفـل فـي الحريـر ثـمّ إنـه تـرك البنـاء وفتح محلاّ لبيع الأثاث المنزليّ الفخم.

لا أحد يعرف بالضّـبط حقيقـة هـذا التّحـوّل ولكـنّ كـلّ أهـل المدينة أجمعوا على أنّهم لئن كانوا لم يعاينوا بأنفسـهم ما حدث فإنّ السّـرّ يكمـن فـي أنّ الرّجـل قـد عثـر وهـو يحفـر إحدى الأسـس على جرّة مملوءة ذهبا.

ثـمّ أصـبحت الدّهشــة دهشــتين لمّـا ظهـر علـى "بشــير الصّياد" ثراء أكثر فحشا... "بشـير" كهـل تقاعـد حـديثا مـن إحدى شركات النّقل العمومي، لقّـب بالصّـياد لغـرام بصـيد الأرانب والطّيور يسكنه... مذ ترك عمله أصبح يقضي يومـه بـين البـراري المتاخمـة للمدينـة ... ثـم فجـأة تخلّـى عـن غرامه بالصّيد وهيامه في البراري وبـدأ ينشـئ المشـاريع ويشـتري السّـيّارات ويتطاول في البنيان...

ثمّ شاع بقـوّة أنّ سـيّارات ضـخمة تمتلكهـا عائلـة مهمّـة تتردّد على أطـراف المدينـة وتقـوم بحفـر بقـاع كثيـرة منهـا بحثا عن كنوز قيل إنّهـا تنـام هنـاك منـذ عهـود... وأصـبحت الإشاعات شبه يقين لمّا عثر جماعة اقتفوا مرّة أثر سـيّارة من سيّارات التّنقيب عن الكنوز على حفرة في شكل قلّـة وعلـى قطعـة ذهبيّـة فـي حجـم المائـة ملّـيم قـالوا إنّهـا سقطت منها.

بدأت حمّـى البحـث عـن كنـوز مخبّـأة تحـت الأرض تنتشـر لـدى الكثيـرين. يمّـم بعضـهم وجهـه شـطر بقـاع فيهـا أثـار رومانيّة وبدؤوا الحفر... واختار آخرون أن ينقّبوا قريبا من أثار ديار قديمة خالية... بدأت عمليّات الحفر بالمعاول والفؤوس ثمّ لجأ بعض المغامرين إلى الحفّارات يستأجرونها ويدفعون لأصحابها المبالغ الطّائلة.

لم يعبأ "مفتاح" بالأمر ولم يثر فيه ثراء عامل البناء"حمّودة" ولا وضع "بشير الصّيّاد" الجديد ولا تواتر عمليّات الحفر أيّ فضول... ولكنّ ما أقضّ مضجعه وفرض عليه الاهتمام إلحاح زوجته "الصّافية" التي اتّهمته بعشق الفقر والرّضا بالجراية اليابسة التي تتقدّم بسرعة السّلحفاة وزيّنت له الثّراء ومباهجه وأصبحت تحثّه نهارا وليلا على السّؤال عن البقاع التي تحوي كنوزا والذّهاب للحفر فيها.

لا يعرف "مفتاح" أماكن الكنوز ولا يعرف حتّى إن كانت هناك كنوز أصلا وبدا له الأمر كمن يبحث عن شعرة في كوم من القشّ ولكنّه كان مضطرّا إلى أن يساير زوجته ويبحث عن طريقة تقنعها أو ترضيها.

تذكّر "مفتاح" ذات ليلة وهو يتقلّب في الفراش بعدما هجره النّوم إثر مشادّة مع زوجته التي أعادت عليه نفس الإلحاح بلهجة أشدّ وأنكى أنّ لديه صديقا في بلاد المغرب كان يتردّد عليه ليقتني منه الملابس النّسائيّة والأحذية وحقائب الجلد أعوام كان يسافر مع ثلّة من أصحابه مرّة أو مرّتين في العام عبر تراب الجزائر . وسمع مفتاح من يتداول أنّ من المغاربة من يمتلك خرائط تدلّ على مخابئ الكنوز. عندما صارح زوجته بأمر صديقه نهضت وارتمت عليه تقبّله وألمّ بها فرح عارم... فرحت كأنّما "مفتاح" عثر فعلا على الكنز واستخرجه.

قالت له :

- نتدبّر أمرنا ونستعين على قضاء حوائجنا بالكتمان. أبيع مصوغي لتقتطع تذكرة وطِرْ إلى المغرب الأقصى وابحث هناك عن صديقك أو عن أيّ واحد يدلّك على الخرائط ويفسّر لك كيف تقرأها وكيف تصل بها إلى كنز من الكنوز المختبئة منذ عهود في أطراف مدينتنا.

لم يستسغ "مفتاح" أمر السّفر.

قال لها :

- سألجأ إلى حاسوبي أبحث فيه عن صاحبي.

بعد جهد يومين، عثر "مفتاح" على صديقه تاجر الجملة المغربيّ. تبادلا السّلام والسّؤال عن الأحوال والذّكريات ثمّ عرض "مفتاح" على صاحبه أمر الخرائط والكنوز.

قال صديقه المغربيّ إنّه على صلة بمن يمتلك مثل هذه الخرائط وإنّه يعرف من يمتلك آلة إنذار تطلق كلّما وقع منقارها على كنز مدفون صوتا كالصّفير.

أخذت عائلة مفتاح تعيش على وقع انتظار زيارة الصّديق وبدأت أحلام "الصّافية" تتّسع وأصبح مدار حديثها مع زوجها نهارا ومع نفسها أكثر اللّيل الدّار الجديدة التي ستشيّدها والسّيارة الفاخرة التي ستقودها بنفسها والمصوغ الذي ستبهر به عيون نساء المدينة والبلدان التي ستسيح فيها... وأكرمت العائلة ضيفها إكراما شديدا.

تركته يستعيد أنفاسه يومين من تعب السّفر ثمّ انطلقت في اليوم الثّالث في اتّجاه البراري المجاورة للمدينة سيّارة رباعية الدّفع اكتراها للغرض "مفتاح" وحمل فيها مؤونة أيّام بلياليها وبندقيّة صيد وخراطيش... وبدأت السيارة تتّبع خطى الخريطة.

وشاع في الحيّ لغو كثير حول حقيقة هذا المغربي ذي اللّحية الكثّة والقميص الأبيض الذي يحلّ ضيفا على "مفتاح" ويقيم لديه. ولم تفلح قوارير العطر وقطع القماش والأوشحة وعلب التّجميل التي وزّعتها "الصّافية" على أكثر الجارات لغوا في إلجامهنّ وتطويق الحديث.

استطاع المغربي أن يحدّد المساحة التي يتوقّع أن يكون مختبئا فيها كنز قديم ، وبدأ الاثنان يتداولان على دقّ الأرض بمنقار آلة اكتشاف الكنوز منتظرين في كلّ حين أن تصفّر الأرض ويتكلّم كنز من باطنها.

مرّ يوم أوّل لم تنطق فيه الآلة ولم تتكلّم الأرض. ثمّ... قرع في أوّل اليوم الثّاني أذني الرّجُلين صوت كصوت الصّفير واشتعل في أعلى رأس الآلة ضوء أحمر في حجم العين.

تركا الآلة تسقط وارتميا في أحضان بعضهما يتعانقان.

خاتمة أولى

تصدّر نشرة الأخبار الرّئيسيّة خبر عاجل مفاده قضاء مجموعة من رجال مكافحة الإرهاب على عنصرين خطيرين

بحوزتهما آلة غريبة سيقع فحصها وتصنيفها لاحقا أحدهما يحمل سلاحا ومجموعة خراطيش وثانيهما يلبس قميصا أبيض وله لحية كثّة .

خاتمة ثانية

شرع الرّجلان في الحفر وما إن جاوز العمق مترين حتّى أحسّا أنّ التّراب تحتهما أصبح رخوا وأنّ الحفرة تهوي إلى الأسفل. لم تمض دقائق حتّى ابتلعتهما الأرض...

وبدأت آلة اكتشاف الكنوز تطلق صفيرا ظلّ متواصلا إلى ساعات الفجر الأولى ثم خبا...

خاتمة ثالثة

بعد ما مرّ على الحفر يومان ظهرت للعيون الأربعة جرّة في حجم رضيع جذبها الرّجلان معا وفتحاها وما إن كشفت لهما عمّا تحويه حتّى أسرع أحدهما إلى بندقيّة الصّيد وكانت رابضة على مقربة من تراب الحفرة فشغّلها وصوّبها نحو رفيقه فأرداه ميتا ووقف على جثّته يتابع بعينين زائغتين دمه الأسود يسيل منه إلى الجرّة وإلى الحفرة التي كانت تحويها .

تمّ طبع هذا الكتاب بـ : .....

تصميم النسخة الإلكترونية
(الغلاف و المحتوى)
و نشـــــرها الكترونيـــــا: الكاتـــــب
و المصمّم
صالح مبروكي 2021

1	وزير بخمسة دنانير	7
2	منذ متى...؟	15
3	أنا ... وهنّ الأربعة.	22
4	حالات	35
5	ثلاث محطّات	46
6	نزل الأنس	56
7	يوم تأنّقت	64
8	أنا والشّرطيّ واللّيل	71
9	وغلّقت الأبواب	78
10	أنا آسف جدّا	84
11	يوم من أيّام "عبد الخالق"	90
12	مفاجأتان	96
13	أنا و ذاكرتي	103
14	خبر عاجل	113
	الفهرس	122

فـهـرس الـكـتـاب

✓ **في القصّة:**

* موتك يقتلنــي — دار الإتحاف/ 2001.

* أيّــام العطش — دار الإتحاف/ 2002.

* لا موت بعد اليوم — دار الإتحاف/ 2004.

* رأسـي الجديد-— دار إشـراق للنّشـر/2010.

* بنت الحرام ----- الثّقافيّة للنّشـر / تونس 2015

✓ **وفي انتظار الطّبع :**

* سـلطان الحريم .

* مختارات قصصيّة .

* الأعمال القصصية الكاملة /الجزء الأوّل .

✓ **في الرّواية :**

* الـنّسـيـــان / دار الإتحاف 2003.

* أيّام إضافيّة أخـرى –دار البراق–ط: 1: 2006/ ط: 2:دار رسـلان: 2014

*سـفَر التّيه -— المدينة للنّشـر/ 2008/ الثقافيّة للنّشـر/ الجائزة الأولى لمسابقة المدينة للرّواية 2008

*جحيم في الجنّة– ط:1:مآثرللإنتاج الثّقافي:2009/ط:2:دار رسـلان :2014

* قبـيْل الشّروق —2012/ البراق للطّباعة والنّشـر .

✓ **وفي انتظار الطّبع :**

* الأعمال الرّوائيّة الكاملة /الجزء الأوّل .

- وللكاتب مقاربات نقديّة منشورة في صحـــف و مجلات عربيّة.

تصـــــميم النســـــخة الإلكترونية (الغلاف و المحتوى) و نشـــرها الكترونيـــا: الكاتب و المصمّم صالح مبروكي 2021